

قصص قصيرة

أصوات ما بين المطرقة والسندان

زياد طارق العائفي

٢٠٢٠

حقوق الطبع للأغراض التجارية والاعمال
الدرامية محفوظة للمؤلف بموجب قوانين
حقوق النشر النافذة.

لمراسلة المؤلف:

2mi.film@gmail.com

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

إِذَا كَانَ طَرِيقُكَ مَوْحِلاً وَمَرَأَتُ الْآثَارِ قَدَامَكَ

مَاضِيَةٌ فَلَا تَيْأَسْ إِنْ الْمَعْبَرُ قَرِيبٌ وَإِلَّا فَاطْبِعْ خَطُوتَكَ

الْأُولَى عَلَى الطَّيْنِ وَلَا تَتَوَقَّفْ أَوْ تَحْتَمِرْ .

١٩٩٨/١/٦

الاهداء

إلى العراقيين الذين حافظوا على أصالتهم

ومبادئهم

برغم من سعي إلى خرابها مع وافر

اعتزازي وافتخاري.

المقدمة

(اصوات ما بين المطرقة والسندان) هي مجموعة قصصية كُتبت في زمن السنوات العجاف و الحصار الاقتصادي على العراق الذي فرضه المجتمع الدولي من بعد اجتماع ثلاثين دولة على تخريب البنى التحتية الاجتماعية و الاقتصادية والسياسية في العراق، وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية، وقد كان تأثير نتائج الحصار على الفرد العراقي أكبر من تأثيرها على الحاكم والحكام بل إن هذا وذاك قد ضغطا الفرد العراقي بضربات موجعة كضرب المطرقة على السندان، فكانت أصوات تلك الضربات مدوية اهتزت لها شخصية الفرد إلى حد عدم الشعور بالأمن الشخصي وتزعزعت لدى الكثير من الأفراد تلك المبادئ التي رسختها الحضارات المتوالية على أرض الرافدين، فالجوع كافر كما يقولون ولاسيما حينما يسحق الفرد فيضطر إلى هم جزء من بيته ليبيع الطابوق والحديد ليؤمن ما يسد رمق نفسه وعياله بغض النظر عن الأثاث والمقتنيات والحلي وربما النفس أيضا. لذا ينبغي إن يؤخذ بالحسبان أثر ذلك كله على ثقافة المجتمع والبنية الاجتماعية والنفسية للفرد العراقي عند قراءة القصص.

في هذه المجموعة القصصية يجد القارئ الكريم شخصيات أوجعتها ضربات مطرقة الحصار وسندان الواقع العراقي آنذاك بنظامه

وبحكامه، فهي شخصيات حقيقية من حيث تمثيلها لشخصية الفرد العراقي المتوجع الذي لا يجد مخرجاً لمشكلاته التي أُفحم فيها مكرهاً مكروهاً، ومنها شخصيات حقيقية لها كيان ووجود خارجي قد وضعها المؤلف في أحداث قصة تحكي حادثة ما أو تحكي حالة إنسانية كانت في تلك الأيام ظاهرة للعيان.

زيد طارق العتائقي

٢٠٢٠

مائدة الرصيف

حليم: سلام عليكم (قالها لصاحبه الذي التقاه في طريقه إلى البيت وقد وضع سترته على كتفيه) .

-شاكر: عليكم السلام ، كيف عمك؟

حليم: (زَمَّ شفتيه وقلب كتفيه مشيرا إلى رتابة الحال) .

اخترقازحام الناس وقد انشغلا بما حولهما، فقد كانت أصوات الباعة تملأ المكان عصر ذلك اليوم في باب المشهد (١)

كانا يتحيانان الاقتراب من بعضهما لاستئناف الحديث المنقطع لصخب المكان، وما من صعوبة لجمع أطرافه، فقد كان حديث الساعة يشترك فيه البسطاء والفضلاء ومن يمتلك سمة الإنسان.

-حليم: الأسعار مرتفعة اليوم (يمسك بطرفي سترته من الأعلى) يقولون إن الدولار... (فرق بينهما صبي يحمل أكياس النايلون مجيبا صوت الداعي (علاگة) (٢).

أصلح حليم سترته على كتفيه، وتابعا المسير وعيونهما ترقب

١ باب المشهد اسم للباب الجنوبي لمدينة الحلة باتجاه المشهد العلوي في النجف الاشراف

(٢) علاگة: اسم كيس التبرضع المصنوع من النايلون.

الخضروات واللبن والسمون^(١) وأشياء أخرى. صعدا الرصيف المحاذي لسياج المستشفى مخترقين عربات الدهين^(٢) ومصايح الزيت وسجائر المفرد^(٣) وبائع البيض الذي كان ينادي: تخير اثنين بمية وخمسين (باللهجة العامية).

قال حلیم متهمًا وهو يتمم: (يديمك يا رخص)^(٤)، ثم تحسس جيب دشداشته الطويل ورجع خطوات ليختار بيضاء، دفع النقود للبائع وحمل أربع بيضات بكف وبالأخرى باقي النقود ليدسها في جيبه، وإذا بصبي يحمل أكياس النايلون يمر بسرعة^(٥) فيمس كف البيض بكتفه، وما انتبه حلیم إلا وبيضة بين قدميه على الرصيف قطعتين متقاربتين بينهما صفار البيض اللامع كالعلامة الفسفورية، رفع رأسه ونظر في وجه شاكر حيران، ثم نظر إلى البيضة مودعا، خطا فوقها حذرا من إن يسحقها، وهو يحبس البيض المتبقي بكفيه، فمضى يحدث صاحبه عن السوق والأرزاق. خلفهما كان يمشي رجل يبدو في العقد الخامس، يلبس دشداشة لونها أزرق باهت يشد

٣) السمون: اسم لنوع من أنواع الخبز معروف في العراق.

4) الدهين: اسم حلوى محببة عند العراقيين.

3) سجائر المفرد: عندما يشتري الفرد سيجارة واحدة أو أكثر.

٤) يديمك يا رخص: عبارة تهكمية عراقية، فقد كان ارتفاع الأسعار جراء الحصر الاقتصادي صدمة مفاجئة بالنظر لما اعتاد عليه الناس آنذ.

٥) من آثار الحصار على بعض العوائل أنهم اضطروا لدفع أطفالهم للعمل، ومن تلك الاعمال بيع أكياس النايلون للمتبضعين في الأسواق فتراهم يتخاطفون بين الناس لبيع اكياسهم.

وسطه بحزام جلدي رفيع يكاد يكمل دورته الثانية حول بطنه ، كانت نظراته تجول ترقب ما تحمله عربات الباعة وما عُرض على الرصيف وأذنيه مشدودةً للأصوات ، وقعت عينه على البيضة الساكنة على مقلاة الرصيف ، فقد وصل في اللحظة التي قرر مالکها أن يتركها ، نظر إليها ، سبقته خطوته ، التففت نحوها ، رآها لأمعة صفراء بين قطعتي القشرة كمرهقة تجلس على عتبة الدار ، تأكد أنها مشاع ، وفجأة هبط باسطا كفيه حولها قرب فمه منها وأخذ شهيقا عميقا وإذا بصفار البيضة ينجذب بين شفثيه بخفة تاركا قطعتي القشرة ويضع قطرات على شاربيه باننت لأمعة عندما نهض وتابع مسيره ينظر إلى البضائع ويشنف أسماعه بدعوات الباعة^(١).

آذار/١٩٩٧

(١) مشهد حقيقي رآه الكاتب في ذلك اليوم وبنى عليه القصة.

الخطوة

خرج (صاد) من بيته قاصدا الطريق، حينما وضع خطوته الأولى رأى أثر أقدام تتحرك قدامه، فحدث نفسه قائلاً:

هذي آثار خطوات تسبقني، ما أعجب نسق الخطوات، تطأ دروب الأفكار. هكذا حدث نفسه وهو يحدق بالأثر مندهشاً معجباً تدور في خواطره أفكار وأفكار: أتبعه لعلني أتعلم منه وأسبقه؟ ربما أوصلني إلى غاية نفسي.

انشغل به طويلاً وقرر إن يتبعه. فقد كان (صاد) في ذلك اليوم قبل أن يخرج قاصدا الطريق ينظر إلى نفسه في المرأة، نظر إلى رأسه: جميل.

نظر إلى عينيه :

ثاقبة.

حقق النظر فيهما شاهد وديانا ومغارة سوداء ماثلة في الوسط تقضي إلى عقله :

ها، نعم عقل راجح لكن تنقصه التجربة والإعلان، نعم الإعلان والإعلام .

حينها قرر إن يخرج من بيته يبحث عن أكبر دار للإعلان . هكذا
كان عزمه عندما قرر إن يتبع الأثر. سار وراءه، حث الخطوات
محاولا إن يلحق به أو يصحبه :ومَنْ يدري ربما سبقه .جدّ في
سيره، ولكن الخطوات سريعة والدرب طويل .

حث خطاه فلم يقدر .

: ما هذا، الوقت أدركني ولم أصل بعد، لا بد من طريقة أفضل،
سأضع خطوتي على الأثر هكذا سأصل بسرعة، نحن في عصر
الصاروخ؟ الصاروخ نحن في عصر الذرة والليزر.

حدث نفسه بهذا الحديث وهو منشغل بالطريق وبالخطوة، مرة
معجب بها ومرة لا، فيرى الصروح والأعمال الكبرى والسلالم
وقمم الجبال وقيعان الوديان وأصوات الهاويات بلا قرار، يشهدها
خلفه، فتنتطبغ في ذاكرته آثار الخطوات، يحاول أن ينقلها إلى خطوته
فلا يقدر، يحاول، يحاول، يشقى من أجل ذلك، قبل إن يُتم ما يريد،
لا يقدر، فيظل يسيّر تابعاً الخطوة الأولى التي رآها حينما خرج من
بيته قاصدا الطريق واضعا خطوته الأولى.

هذه المرة قرر إن يسبق الأثر أو يعرف صاحب الخطوة التي رآها،
فحث خطاه وأجهد نفسه وزاد من سرعة خطواته، أتعب قلبه، باع
قلبلا من ماء الوجه:

لا بأس بذلك سينبع غيره

حدث نفسه وانحنى قليلا لعله يسرع أكثر، مال بكتفيه، وصل
بركبتيه إلى أذنيه.

: ها، سأصل قريباً.

إن الشيخ أمامه

صاح: اسمع، انتظر (كانت خطواته وهو ينادي أوسع، لكنها بدأت
تُفقد وجهه وأشياء
أخرى) .

: خطوة واحدة وسأصل.

رمى بنفسه وأمسك الشيخ صاحب الخطوة الأولى التي رآها حينما
خرج من بيته، أمسك به وهزه بجهدٍ وتعبٍ وهو يردد:

-كم سرتُ وراءك، ولم أرَ الكثير!؟ كم سرتَ وراءك وتخليتُ عن
الكثير، كم سرتُ وراءك وبعثُ الكثير، دعني انظر اليك لأعرفَ
مَنْ تكون، خطواتك أعجبتني، خطواتك أذهلتني أتعبتني واحترتُ
فيها طويلاً.

التفت صاحب الاثر الذي رآه (صاد) حينما وضع خطوته الأولى
على الطريق وقرر إن يتبعه وسارَ وراءه مُعجباً بخطوته أو مذهولاً،

وما إن بانَّت قسما تهُ أخذتْ صاد الرّعدة والدهشة وراح يصرخُ من أعماقِ نفسه ويضربُ الشبح بيديه ورجليه بحركات هستيرية كأنه الكابوس. فقد تبين إن القسما ت قسما تهُ والشكل شكلهُ، آه، لقد كان يتبع نفسه.

هدأه الشبح وربت على كتفيه وأشار بيده إلى الطريق أمامه، إن الخطوات ما زالت ملتويةً، صاعدةً نازلةً، حافيةً مرةً ومنتعلةً أخرى، وما بين الحيرة والدهشة اتفقا، أن يتبعا الأثر ليعرفا صاحب الخطوة السابقة أمامهما.

حملا نفسيهما على جسد واحد واتفقا إن الحركة لأحدهما والفكر للآخر، صارا جسدا واحدا وعقليين مختلفين. استأنف السير، السير، الحثيث، بذل أقصى الجهد، صرف جزءا من ماء الوجه المتبقي: لا بأس حتى وإن لم ينبع غيره. أتعب عقله وتساقطت بعض قسما تهُ من بعيد رأى شبعا آخر فكر إن يصل إليه مهما كلف الامر ولو بذل كل ما عنده حتى آخر رمش من عينيه. بدأ الطريق يضيق أمامه والخطوة تتوحد وتقتصر لكنها ظلت حافية مرةً ومنتعلةً أخرى، أقترب كثيرا، كان الشبح جاثما هذه المرة يسير على ركبتيه، ضاق الطريق أكثر، لم يستوعب غير الشبح.

صاح: تمهل، فلقد بذلت ما عندي ولم يبق لي الآن إلا إن اراك، أعرفك .

التفت إليه الشبح الجاثم المشغول بحفر الأثر بيده وأسنانه، بجسمه
وبعض الأحيان بعقله:

: ها (متعجبا) إنه هو .

عرف (صاد) إن الشبح شبحة الأول، إنه (صاد) آخر إلا إنه الأول
الذي سار على الطريق وأعجب بخطواته وقرر السير خلفه أو
اللاحق به حتى يشهده يحفر خطوته الأولى، هذ المرة لم يفزع منه،
أو يشعر بالرهبة، هذه المرة استغرب كثيرا وتعجب، إن وجد مرآة
تعكس وجهه و) صاد (الجاثي يتبعها ينظر فيها خطوات أخرى،
يحفرها على الطريق رفع) صاد (الشبح رأسه فنظر الأشياء تنسحب
خلفه بنسق واحد، أشياء كثيرة، أفكار وخطوات وأشباح، ودروب
وطرق

تنسحب وتمتد أمامه في نفس اللحظة، وجد طريقا آخر يختلف عن
باقي الطرقات يكبر عليها يسحبها في مجراه راغمة أو مختارة،
يتنقل بين الطرقات بلا أدنى صعوبة أو حيرة، بل ينتقل بخفة وسطوة
فيطمرها ويوحدها في نسق واحد يخفي معالمها ويتصاعد عن ذلك
غبار الذكرى، عندها فكر (صاد) مليا أينقل خطواته أم يبقى ويغير
شكل الخطوة؟

آذار/١٩٩٧

الفقير فوق البعير

أثار انتباه المارة بحركاته وتلويحاته وهو يسير بعزيمة وإصرار وقدماه تضرب ذيل الدشداشة محدثة أصواتا مسموعة في صبيحة ذلك اليوم والناس يبدوون يومهم بفرش البسطات على الرصيف أمام المحلات التجارية. لم يعترضه أحد أو يثني عزمه فمنظره ليس بغريب نوعاً.

-لابد أن أفعلها، مهما يكن، يجب أن يكون موقفي حازماً وصارماً، نعم سأعلن ذلك أمام الجميع، سأبين له كيف ظلمني وأذاني، سأجعل منه عبرة للجميع.

قطع كلامه المسموع مع نفسه عندما وصلت قدماه إلى مقترب الجسر:

-نعم، هذا جسر الهنود^(١) عال ومناسب جداً، وطويل أيضاً، طوله أكثر من عرض الشط وأقدر أن أصعد سياجه من مكان مناسب وأعلن للناس ولمعارفي ولجميع الباعة إنني أحتج!

(١) جسر في مركز مدينة الحلة بنته شركة هندية فأصبحت جنسيتهم اسماً له.

قال ذلك وهو يسحب يده على سياج الجسر البارد، رمى بطرفه إلى الناس، رآهم تحته بلا رقاب يصرخون ويلوحون وهم يفترشون الشارع والرصيف بالبيض والطماطم والسمك والأجساد المنهوكة.
: هذا أحسن مكان.

توقف عند سياج الجسر رفع طرف الدشداشة وصعد، تمايل قليلا، حفظ توازنه، واستقام بوقفته، جالت نظراته وصاح ملوحا بيده، يعلن خطابه كداعية ثوري :

-أيها الناس، لقد ظلمني وغشمني وأكل حقوقي، وفيت له كل الوفاء ولم أبخل عليه بشيء (لاحظ تجمع الناس تحته يشيرون اليه وينادونه بكلمات لم يفهمها واستمر يخطب بأعلى صوته).

:إني أحتج بشدة ، وسأجعل منه عبرة لمن أعتبر ، أيها الناس اشهدوا وقولوا له إن ... (قطعت كلماته بيضة ارتطمت بوجهه متناثرة، فاحسّ بطعم عفونتها وتناثر مائها اللزج على وجهه ولحيته، تمايل جسمه، أختل توازنه، ازداد ميلانه وسقط.

: هذا أفضل ربما أجبن ولا أقوى على السقوط في الماء (ردد ذلك مع نفسه وهو ممسك أنفه بأصبعيه) ما هذا كيف سأغرق وأنفي وفمي مسدود؟

وبحركة سريعة رفع يديه للأعلى وهو يهوي متأملا صوت ارتطامه بالماء الذي سيغطي جسمه ويسحبه للقاء، أحسَّ برجليه ترتطم بالأرض فتهالك مستقيا على ظهره محركا يديه آملا إن يرفعه الماء فيطفو ويصرخ ويلفت إِنْظار الناس ويدعم موقفه، وسيخرجونه بعد ثلاثة أيام بطلا مغوارا يستحق نوط الاحتجاج والمواقف الصعبة، فكر بذلك وهو يتحرك كالسباح، فتح عينيه أمال برأسه يمينا ويسارا:

ما هذا ، قاع الشط مبلط !إن للبلدية المظلومة أعمالا كبرى، رفع رأسه نحو رجليه :الدم يسيل من قدمي على الأرض ولا يطفوا!

جلس مندهشا في مكانه، تفحصَ المكان بنظراته، سمع كلمات المارة الذين تجمعوا حوله تصك أذنيه، عتاب واستهجان ولوم وتأثر واستخفاف، رفع رأسه للأعلى شاهد الجسر : (إنه في مكانه، إذن ابن الشط؟ آه .إنه يبعد خطوات عني) .فلقد سعد سياج الجسر قبل إن يكون فوق الشط ،ساعده الناس فنهض يضلع في مشيئه متأملا إن يعيد الكرة ولكن برفقة مساح أو مهندس الطرق والجسور .

نيسان ١٩٩٧

أحلام أوربية

أغلقت زر المنبه قبل إن يعلن الساعة المتفق عليها،
وانسلت من فراشها بخفة حتى لا يستيقظ ولدها ويشغلها، فأمامها
يوم عمل يدعوها للعجلة وعدم النسيان، وهي تعيد التفكير بما يجب
عليها تحضيره للسفرة الأسبوعية.

دخلت المطبخ وهيأت إبريق الشاي وأعدت مائدة الإفطار السريع
وظفقت ترزم الحاجيات:

- هذا حافظ الشاي، هذا الماء المعدني، هذه لفات الزبد وقطع الكيك
والشراشف. سحبت الدرج لتأخذ الملاعق والشوكات والسكين
ورفعت يدها بألية لتخرج الأكواب من الخزانة المعلقة ومر
بخاطرها هل تلبس بنظلون الكاوبوي أم ثوبها الفضفاض :

- لا الثوب أحسن. (فقد شاهدت بطلتها في المسلسل الأجنبي ترتدي
ثوبا عندما تخرج وتعلم أنها ستجلس على الأرض) نعم الثوب أحسن.
-ماما لا تنسي البالون.

قطعت هذه الكلمات تتابع افكارها ونظرت إلى ولدها قرب الباب
وهو يحمل حذاءه الاسفنجي وسرواله ذا الحمالتين المطاطية، بادرت
اليه مبتسمة، قبلته وهي تشعر بالاعتزاز إنها أورثته شيئا من

حرصها وتطلعها. حملته إلى الحمام فوجدت اياه يحلق ذقنه قالت
وهي منشغلة بولدها:

- صباح الخير، لم أكمل بعد، الوقت متأخر.
نظر اليها مبتسما في المرأة وقال: كالمعتاد.

لم ترغب أن تطيل الحديث وتبدد همتها وغبطتها، هيأت صغيرها
ودارت في شقتها ويدها تجول في المكان تأخذ هذا ترتب ذاك، ثم
دلقت إلى غرفتها تنتشغل بملبسها وتعيد التفكير وربما شغلها خاطر
يُبطئ من حركتها أو يستوقفها ساهمة لشيء أو لا شيء. فهذا اليوم
عطلة نهاية الأسبوع ومن المفيد جدا جدا أن تخرج في نزهة تعيد
اليها نشاطها وذكرياتها وتذكي أحلامها الوردية.

- هيا شايك سيبرد.

تحدثت مع زوجها وهي ترتدي ثوبها الفضفاض والسحابة الخلفية
مفتوحة فاستدارت له تطلب منه غلقها ففعل.

تأكد زوجها من غلق التيار الكهربائي وهو يحمل مضرب الريشة
والبالون المطاطي الكبير ولحق بزوجته وولده، فقد سبقاه إلى
السيارة في مرآب العمارة السكنية، فانطلقوا وهم يحلمون بقضاء
يوم جميل في الحديقة الكبرى ذات المروج الخضراء والأشجار
العالية المطلة على ساحل البحر.

كان ولدهما في المقعد الخلفي يحاول إن ينفخ البالون الكبير ولما عجز عن ذلك قال:

- ماما، ماما انفخي البالون .

القت ما بيدها من قشور الحب من شباك السيارة، فتطايرت إلى الخلف في دوامات صاعدة نازلة، أخذت البالون، وضعت طرفه في فمها وبدأت تنفخ وعيناها تزداد اتساعا وهي تنتظر إلى فرح ولدها المتزايد كلما كبر حجم البالون، ثم عقدت طرفه وناولته لولدها قائلة: سنملأه بالغاز عندما نصل إلى الحديقة. فأسند ظهره إلى المقعد الخلفي وراح يلهو به.

وضعت يدها على صدرها ثم تحت أذنيها وضغطت بخفة وهي تسند رأسها إلى الكرسي، ثم سحبت فخذها إلى الأمام وأطبقت جفنيها وعلى شفثيها شبه ابتسامة تتأمل افكارها سارحة دون قيد، نظر إليها زوجها بطرفه محدثا نفسه وهو يتابع الطريق أمامه (أتركها تنام فقد استيقظت مبكرة) .

تململت في نومتها واحتضنت صدرها بيديها وأمالت برأسها قليلا نحو شباك السيارة ولاحت منها نظرة وراحت تغفو مطبقة جفنيها على منظر الأشجار الهاربة خلفها بأصواتها التي تعلو وتخفت فتمتزج بدويّ السيارة الخافت و المرج الأخضر يقترب من حافة الطريق الاسفلتية وبيتعد سريعا باتجاهات مختلفة ليعود مرة أخرى

كانه يريد ضرب السيارة من جانبها، ومر بخاطرها بائع البالونات في مكانه المعهود على مرج ناشز، أمامه قنينة الغاز الطويلة وعشرات البالونات الملونة تتمايل يمينا وشمالا، وكأنها تتملص من عقال الخيط الذي راح يتابعها أينما اتجهت. حول البائع تحلَّق الأطفال يشترتون مبتهجين وعيون الآباء والأمهات ترقبهم عن كئيب وهم يأخذون البالون من طرف الخيط راكضين بين الأعشاب الخضراء، وربما أفلت من يد أحدهم فيطير سريعا كعصفور فر من قفص مودِّعا والعيون ترقبه بياس حتى يختفي من فرط تساميه، وبالون آخر صادته أغصان الأشجار المتشابكة العالية وطفل أسفل منه يراقبه ويدور في مكانه متمايلا.

كانت الحديقة واسعة تتخللها الأشجار العالية المتشابكة الأطراف وسط مساحات خضراء مزهرة مطلة على شاطئ البحر من مرتفع قبالة مغيب الشمس، تشكل بتنسيقها الطبيعي منتجعا يقضي فيه الناس أوقاتا حلوة، وقد اختاروا أماكن تطيب نفوسهم بها يتحادثون بما يعمق في نفوسهم متعة السفر. يجوب المكان بين حين وآخر أطفال يتعالى صخبهم حول الباعة الذين اختاروا أماكنهم بغير انتظام يعرضون لرواد الحديقة ما يحتاجونه. ما إن وصلوا إلى الحديقة بأمتعتهم ووضعوها تحت الأشجار العالية في مكان يطل على البحر قال ولدها:

- ماما فكي عقدة البالون.

(ناولها البالون ونظراته ترمق البالونات السابحة المشدودة إلى قنينة الغاز أمام البائع والأطفال حوله، فكّت العقدة فأحدثت صوتا كأنه الشخير وهي تمشي قاصدة الوفاء بوعدها لتملأ البالون بالغاز وولدها يسبقها بخطواته القصيرة السريعة وفي وجهه فرح غامر، أقبل زوجها وعيناه تحدّق في لمعان البالون المنتفخ الأحمر حتى بدا لونه شفافا وكبره كحجم الشمس ساعة المغيب.

عقد البائع طرفه بخيط سميك يناسب حجمه وناوله للصغير الذي بدا فرحا مدهوشا وهو ممسك بالخيط بكفه البضة الصغيرة وعيناه تتابع البالون الذي ارتفع بطول الخيط يتمايل يمينا وشمالا، وكاد أن يفلت من يده لولا أن أمسك به أباه بخفة وبخاطر سريع أخذته الأم من زوجها وربطته بحمالة السروال المطاطية فارتفع مجددا وعيون الطفل لا تتركه لحظة، دار حول نفسه يرقب دوران البالون فرأى ألوان البالونات المعلقة أمام البائع تتراقص بألوانها الزاهية الأصفر والأحمر والأزرق كأنها تريد إن تصل إلى بالونه الكبير الذي بدا دائرة حمراء لامعة شفافة وسط الخضرة، أعجبه ألوان فطلب بالونا آخر وفي عينيه الفرحة اللامعة توسل وقد انعكست فيها كل الألوان.

(هاك خذها كلّها) قالها الأب وهو يأخذ البالونات المعلقة أمام البائع ليعقد خيوطها على حمالة سرواله المطاطية فتناولت نحو البالون

الكبير مسرعة كأنها صغار الطير وبدا البالون الأحمر متوهجا
وسطها.

راح الصغير يركض ويقفز من فرحته متجها نحو الأمتعة وهو
يشعر بخفة قدميه على الأرض، عندما يقفز ويعود وهو يركض،
لامس الأرض بطرف حذائه الاسفنجي إلا إنه لم يعد يقفز بل يرتفع
قليلا ثم يعود ليرتفع أكثر مندهشا فرحا.

تثاقلت خطوات أمه حينما انتبهت لما يجري وعيناها تحمق بحذائه
الاسفنجي يرتفع عن الأرض و يهبط قليلا ثم يرتفع أكثر، لاح لها
من بعيد بياض الأمواج اللامع كزراعين ممدودتين تدعوه بحركة
متموجة كأمه ، أرادت أن تخطو ، تركض ، ترفع قدميها إلا أنها
كانت تحس بثقل عجيب ، سقطت جالسة على ركبتيها ، وكلما ارتفع
البالون كلما ازداد الثقل ، وكأن شيئا يضغطها للأسفل ، فسكنت
راغمةً وعيناها وروحها تحتضن ولدها الذي كان يضحك ويصرخ
،تنظر إلى قدميه يخطوان في الهواء خطوات سريعة وراحة يده
البيضاء الفضية وأنامله كبراعم لم تورق ، يرتفع ويميل نحو البحر،
صدرت من أعماقها شهقات وصرخات مكتومة . تشوشت في أذنيها
الأصوات محدثة دوبا كصوت الشلال، أصوات كالأمواج تعلو
وتخبو، سكن الصوت فجأة، فقد علق البالون بالأغصان المتشابكة،
دار في خاطرها فزع موحش أتركه الأغصان فيفلت محلقا! ؟ أتميله

الريح نحو البحر أم ينفجر البالون بفعل الأغصان فيسقط ولدها
متدحرجا نحو الساحل؟

(ماما) .سمعت صوته مستنجدا فقد أخافه المنظر ،حرك رجليه ويديه
،كانت تريده ساكنا لا يتحرك لكنها لا تقوى على أسماعه صوتها
أو تلوح له بيدها الثقيلة المشدودة كأنها مغلولة إلى صدرها.

(ما ما) ...ارعبها الصوت.

(ماما) صرخ ويده الممدودة يريد أن يحتضنها وفجأة .انفجر البالون
مخلفا صداه في أذنيها وتتابعت الأصوات... ماما.ماما.

فتحت عينيها على نداء ولدها الذي كان قريبا منها ويدها تهزُّ كتفها
وهو في مقعد السيارة الخلفي، التفتت نحوه وقد أدهشه انفجار البالون
بأصابعه وهو يحاول إيقافها، فقد وصلوا إلى ساحة وقوف
السيارات في الحديقة، دارت نظراتها في المكان حولها، زوجها
يخرج الامتعة من السيارة، استقامت في جلستها وسحبت ولدها إلى
صدرها وضمته بقوة مرعدة: الحمد لله. وسقطت منها دمعة استقرت
على خد ولدها الذي كان يبكي يريد بالونا آخر.

آذار/نيسان/١٩٩٧

شيء يكبر

أحس بمغص في أحشائه، وإن شيئاً كأنه حبة النبق^(١) يدور في جسمه يصعد إلى أعلى رأسه، ينزل إلى قدميه، يدور يبحث عن شيء.

لم يستطع (سميح) إن يعرف هذا الشيء أو عما يبحث، كيف دخل جسمه وصار يتحرك، لماذا يدور يضرب قمة رأسه ينزل إلى أسفل قدميه يحته على الوصول والانتفاخ، أضناه التفكير.

قال في نفسه: لا جدوى من معرفة ذلك، على الأقل في الوقت الحاضر.

وهكذا تركه وواصل طريقه إلى مقر عمله فلقد كان حريصاً أن يصل قبل الموعد، وهو المعروف بجده واجتهاده.

لقد كان (سميح) يكافح من أجل المهنة، ينفذ ما يُطلب منه بدقة وربما يبدع ويضيف، لكنه يتذمر في بعض الأحيان ويُبدي شيئاً من آلامه، يخطط ويقترح، لكن، دون جدوى ولا أحد يسمع.

(١) النبق هي ثمار شجرة السدر والتي ذكرت في القرآن الكريم وتتنوع ثمار النبق من صغيرة إلى كبيرة الحجم وتأخذ أشكالاً متعددة منها الكروي الشكل التفاحي ومنها البيضوي وتختلف اقطار الثمار حسب الصنف ولون الثمار.

في أحد الأيام أستيقظ مرعوبا من نومه والشيء في أحشائه يكبر ويلج في التجوال، هذه المرة دخل مجرى الدم، يتجول ببسر وهناء، وجد أرضا خصبة وأماكن كثيرة يمكن إن يغرس فيها نفسه.

اشتكى (سميح) إلى أصحابه المقربين سرا مما يشكو، فنصحوه:

ما دام الشيء يكبر في جسمه فلا بد للجسم إن يكبر أيضا، حتى يستوعب هذا الشيء وأكدوا له ذلك.

فكر بكلامهم طويلا، أياما وليالي، فكر، تساءل: أيكبر مع الشيء أم يطرده خارج جسمه؟ لكنه اغتمَّ كثيرا عندما تصور كيف سيطرد هذا الشيء من جسمه! أحس نحوه بحنين وإنه شيء منه، كيف يطرد أو يستأصل شيئه؟

وهكذا اتخذ قراره الآتي:

لابد وأن أكبر مع الشيء حتى لا يخرج من جسمي، وأن لو كبرت معه سيطرت عليه وتحكمت فيه ووجهته نحو الأفضل. (هكذا اعتقد عندما اتخذ قراره) .

بدأ (سميح) يغير حياته باتجاه قراره الأخير، قدم طلبا رسميا ذيله بطابع مالي، يرجو فيه إن يكبر وإن يُسمح له بالتمدد حسب مرام الشيء في داخله ولهم منه الشكر والتقدير.

قرأ الرؤساء الطلب، ابتسموا في وجهه، واتخذوا قرارا حاسما ذي فقرات:

أولا :أن يربط جسمه بشدة إلى شبّاكهم.

ثانيا :ألا يتحرك أو يتمدد من دون امر منهم.

ثالثا :أن يبحث عن شرنقة لم تكمل دورتها ينام فيها.

هكذا قرروا وفعلوا في آن واحد.

تضايق (سميح) وامتعض كثيرا، حاول أن يُفَلت من مربطه ويحرر جسمه لكن، دون جدوى، استسلم أخيرا وانتظر مفكرا:

أما أن يضعف جسمه ويسقط رباطه ثم يعيد الكرة، أو يحدث شيئا آخر.

وفعلا حدث أمر غير متوقع، مات من شدّ وثاقه.

سريعا أجمع الاكابر وقرروا أن يكبر جسم (سميح) ولكن يجب ألا يتعدى حجمه، وأن يكون أصغر من حجم الأشياء التي تكبر في داخلهم.

وافق على ذلك وابتسم مسرورا، فقد عرف أنه ليس الوحيد الذي يحمل شيئا يكبر ويتجول في جسمه صاعدا إلى رأسه ونازلا إلى قدميه.

أطمئن وباشر في وظيفته بجد ونشاط، معتقداً إن جسمه سيكبر
والشيء في داخله سيكبر أيضاً ولن ينفجر ويحدث فجوة.

بدأ يمارس عمل من كان قبله، فكبر الشيء قليلاً.

هذا ضروري فللمنصب متطلبات (هكذا حدث نفسه).

اقترح وطور وغير، كبر الشيء أكثر، توقف قليلاً وجد أن الشيء
ينمو أسرع من جسمه، كلما قلّد من سبقه يكبر شئيه أكثر، اضطرب
واحسّ بثقل في امعائه ورأسه، ودوار وغثيان من رائحة الأوراق
والأقلام، وحملٌ حقييته يشعره بالحكة أسفل قدميه، فكر بحالته كثيراً:

حسداً؟! مكائد وتآمر؟ أم عدوى؟

في أحد الأيام وهو يسير على طريق من سبقه انشغل بالشيء يكبر
ويتوالد في جسمه، وأن جسمه بحاجة إلى إن يكبر أيضاً، وفجأة،
أحس بالشيء يسحبه للأسفل وإن الماء بدأ يصعد باتجاه رأسه،
وجسمه يغور أكثر فأكثر حتى وصل الماء إلى شفته السفلى، في
هذه اللحظة انتبه وتساءل: ماذا حدث؟

رفع طرفه للأعلى فوجد رأسه داخل صندوق جدرانه مغطاة بالطين
الأسن، وبقايا فضلات الشارع، وإن عيوننا ترتقبه من أعلى، أغمض
جفنيه وهو يغور إلى الأسفل، حينها أدرك إنه سقط في (منهول

المجاري) (١) وإنه سينتقم من عمّال التنظيف إنهم تركوا المنهول
مفتوحاً.

نيسان ١٩٩٦

(١) منهول المجاري: فتحة مربعة الشكل دون الرصيف تدخل فيها مياه الامطار والتنظيف.

حريق العربات

تتابعت في خلد أيوب الأفكار وهو يمشي على رصيف الشارع المؤدي إلى الجامعين متأبطاً كيس النقود في طريقه إلى زوجته للتشاور معها بخصوص مشروعه الجديد بعد إن باع خاتم عرسها بحسب الاتفاق، وكان العزم إن يشتري عربة لبيع الخضروات.

انعطف إلى الزقاق المؤدي إلى بيته قرب (مسجد بنات الحسن) وقد ايقظته من تتابع أفكاره رائحة الطعام المطبوخ المنبعثة من البيوت المطلة على الزقاق، التي كانت أبوابها الضيقة مفتوحة في الغالب كما هو معتاد في تلك المناطق وتكون فتحة الباب مستورة بستارة يداعبها الهواء للداخل والخارج.

دخل بيته فتلقته زوجته بنظراتها المتسائلة فبادرها على الفور:

بعته بخمس وعشرين ووضع كيس النقود على حافة خزانة الأواني العتيقة.

قالت مريم: الله كريم، سيرزقك وتجلب لي غيره وتساعد من بين يديها بخار التمن وهي تسكبه في المصفاة، فبدا حنكها ووجنتها

لامعة، وأيوب يرقبها وهي تمسح القدر حتى آخر حبة وقد بدا على اصبعها أثر الخاتم طوق أبيض.

قالت: هذه آخر حبة تمنّ (١) في البيت. حفزته هذه الكلمات التي ردها في نفسه ليستأنف الحديث حول مشروعه الجديد.

قال: والان ماذا تقولين؟ أعتقد إن العربية أفضل حل، ستجنبنا مشاكل الإيجار، كما إن الخضروات مطلوبة دائما ولا تتأثر بالدولار؟

قالت: على رأيك، أفعل ما تقدر عليه المهم أن نحصل على معاشنا اليومي، وإلا ماذا نريد؟ لا نريد إن نشترى سيارة أو قسراً عالياً أو ملابس فاخرة.

ملاً ارجاء البيت صوت المؤذن داعياً لصلاة الظهر فقطع أيوب الحوار وتوجه إلى مصلاه خائضاً مع نفسه صراعاً مضمناً ما بين الانشغال بالصلاة وثقل خواتمه القلبية.

كانت مريم زوجته قد انتهت لتوها من اعداد الطعام فبادرت إلى رش الطارمة وفرشتها بحصير الخوص وجلبت مندريين (٢) ثم فتحت باب الدار فانساب تيار عبر الستارة الطويلة المعلقة على الباب فامتأ المكان بعيق الطابوق والمرشوش بالماء وتصاعدت رطوبة

١ تمنّ: تسمية للرز الذي هو من الأكلات الرئيسية في المائدة العراقية.

٢ مندر: وسادة للجلوس عليها باللهجة العراقية.

وبرودة اغنتهما عن استعمال المروحة الكهربائية المنزوية على كرسيها بلا حراك بعد إن أتاح انقطاع التيار الكهربائي فرصة للراحة والتأمل .وعقيب انتهائه من فرض الصلاة جلبت الصينية فجلسا للطعام مستأنفين الحديث.

قال :لقد دعوت الله إن يرشدني لما فيه الخير، وقد عقدت العزم على شراء العربية والميزان والتوجه للسوق غدا صباحاً.

قالت :إن شاء الله.

وبعد القيلولة على الحصير البارد نهض على صوت اقداح الشاي ليخرج بعد ذلك لشراء الحاجيات التي عقد عليها عزمه.

خرج أيوب عصر ذلك اليوم متوجها إلى دكان النجّار واستطاع بعد عرض مسهب لحياته وحاجته إن يقنعه ليتنازل قليلا عن المبلغ الذي طلبه عوضا عن العربية المعروضة أمام دكانه .فراح يدفعها برفق وهو يعاينها تنساب أمامه محدثة صوتا يشعره بثقل المجهول الذي عزم على اكتشافه .توقف أمام دكان المواد الإنشائية واشترى الميزان المستعمل وبعض الأوزان سطرها في العربية وتوجه إلى بيته مضطربا يشعر بالفرح تارة، فتبدده أفكاره المتوجسة تارة أخرى فيتجهم ويتحول فرحه ذاك إلى خوف وتردد، ثم يعيده إلى استقراره إنه دعا الله أن يسهل عليه أمره فيعاود الفرحة مرة أخرى وهكذا إلى إن وصل إلى باب الدار وعيون النسوة الجالسات على

عتبات دورهنّ ترقبه ويسمع همسهنّ ويبادرنه بما يتقصدنّ إسماعه من دعوات.

فتح باب الدار على مصراعيها وحاول إدخال العربية فبدت أكبر قليلا من فتحة الباب، أمالها جانبا ثم أدخلها بصعوبة وجهد، فبدا على وجهه احمرار اختلط باضطرابه وارتباكه من ممارسة شيء من عمله الجديد. أحست مريم بالحركة وبادرت اليه مهللة ومصليّة، رفعت الستارة المعلقة على الباب وكسرت بيضة (١) وهي تُتمتم بكلمات غير مسموعة.

ما إن وصل أيوب إلى باحة الدار حتى تهالك على الأرض جالسا وكأنه أزاح عن نفسه همّاً ثقيلاً أخرجته بزفير مسموع. عادت اليه مريم فألفته جالسا ينفث دخان سيجارته بحرقة وعينه تجولان في العربية والميزان والأفكار أخذت منه كل مأخذ.

قال: غدا سأودعها عن في الساحة وادفع ثمن حراستها فإن إدخالها من الباب يسبب جهدا ومشقة.

قالت: أفعل ما يريحك. وراحت تتفحص العربية وتمسح عليها بيدها وتضربها بكفها ضربات خفيفة كأنها تستنهضها للقيام بعمل ما.

(١) موروث شعبي، المراد منه طرد الشر وكسر عين الحسد

كان الظلام قد بدأ يؤطر زوايا البيت وينصب اشباحه حول باحة الدار، فحوّل أيوب نظره إلى سقف الطارمة ثم إلى المحجر^(١) الخشبي المستند على القضبان الحديدية الملتوية كأنها أوان فخارية، وبدت السماء زرقاء داكنة من بين الفتحات وكأن الانحناءات الحديدية عيون ورؤوس ترقب المكان من أعلى، وأشتعل وهج برتقالي أعاد أفكار أيوب إلى داخل الدار، فقد كانت مريم تُشعل اللوكس^(٢) وتضرب مكبسه بشدة فيزداد توهجا ويعلو صوته يكسر وحشة المكان. فنهض ليلعله على القضيب المتدلي من السقف فاننتشر ضياؤه محولا أشباح الظلام إلى ظلال حالكة تنساب على الأرضية البرتقالية المتعرجة، وفي الحال دارت حول المصباح النفطي مخلوقات صغيرة شكل طيرانها خطوطا متموجة تصطمم بالزجاج المتوهج فتساقط على الأرض وهي تدور حول نفسها . كانت مريم قد بدأت تُكثر الصعود والنزول من سطح الدار لتهيي المكان المعتاد للجلوس والنوم .

في صبيحة اليوم التالي نهض أيوب من فراشه على صوت أذان الصبح وأيقظ مريم ثم نزل إلى صحن الدار يتهيأ للصلاة والإفطار ليبدأ عمله الجديد على وجل واضطراب، ولا يعلم لماذا تواردت في

(١) المحجر: تسمية متداولة للسور الخشبي الذي يلف سطح الدار المطل على الباحة.

(٢) اللوكس: مصباح نفطي.

ذاكرته صور ذهابه إلى المدرسة لأول مرة حينما نظر إلى مريم وهي تعدّ افطاره وتخرج ملابس العمل وكيس النقود المتبقية لشراء الخضروات.

فتح الباب واخرج العربية وأعانتته مريم على ذلك وهي تدعو له باليسر وفتح الأرزاق، ثم أغلقت الباب دونه وفي نفسها شوق لمعرفة ما سيؤول إليه امره.

سار أيوب بعربته في الازقة المظلمة الساكنة يكسر وحشة الطريق بصوتها المجلجل الذي ملاً أسماعه متوجهاً إلى علوة^(١) المخضّر، ما أن وصل إلى الشارع العام حتى تبدد شيء من توجسه وارتبأكه حينما شاهد جمعاً من العربات تخرج من الأزقة أو تقبل من نواح مختلفة فأحس بالألفة واندفع يواصل طريقه حتى دخل الباب الكبير للعلوة وشاهد السيارات القادمة من الأرياف وهي محملة بأصناف الزروع والناس.

هناك التقى بأصحابه الذين شجعوه على عمله الجديد فاستقبلوه بحفاوة وأرشدوه إلى التاجر الثقة، وأشاروا عليه بشراء المحصول الذي يطلبه الناس في مثل هذه الأيام بما يناسب ما تبقى عنده من

(١) العلوة اسم لمكان يتباع فيه البضائع يضاف إليه اسم للتمييز، فيقال علوة المخضر أو الأسماك أو الاغنان وهكذا، اظن انه مأخوذ من العلاوة: ما يوضع على البعير بعد تمام حمله من سقاء وغيره والجمع: علاوى

نقود. حملَ عربته مع أصحابه وتوجه معهم نحو الشريعة^(١) قرب
الجسر العتيق ليأخذ المكان الذي يقف فيه بينهم ريثما يتعلم اسرار
المهنة.

أفرغ كيس الخيار وبدأ يرتب حياته كما يفعل أصحابه وينادي عليه
بالسعر السائد، وبدأ الناس يتوافدون يقلبون البضائع يتساءلون
ويشترون، باع لأول شخص سأله عن الثمن ودس النقود بعد إن
قبلها لله شاكرًا في جيبه. كان يجتهد إن يجلب المتبضعين إليه بحسن
اخلاقه وإيفائه الكيل.

وجدت مريم في يومها ذاك نشاطًا غريبًا يدب في أوصالها فطفقت
تُنجز أعمالًا البيت على أكمل وجه وهي تحس أن عملها سهل
وبسيط، فأعدت الغداء المتيسر ونضحت البيت بالماء وفرشت
الحصير على عاداتها وجلست تطرز ثوب وليدها المنتظر على أمل
إن تُفتح الباب ويدخل أيوب.

أخذ أيوب يعتاد معاملة الناس بعد أن باع جَلّ بضاعته وبدأت الشمس
تعصر وجهه فتنساب قطرات من جبينه تنحدر على صدغيه وتدخل
بين شعيرات لحيته لامعة باردة، وبين تأملاته ومعاملة الناس حدثت
حركة غريبة في السوق فقد بدأ الباعة يجمعون بضائعهم إلى جانب

(١) الشريعة: منطقة تقع بالقرب من جسر الحلة القديم، حيث يتجمع الباعة على جانبي نهر الحلة لبيع
الخضروات.

الطريق، منهم من ترك المكان مسرعا يدفع عربته بخطى حثيثة .
نظر متسائلا في وجه أصحابه فأشاروا اليه بالبقاء والثبات عندما
اقترب منهم ثلاثة اشخاص يحملون الهراوات وخلفهم يمشي
شرطيان يحملان السلاح ونظراتهما تجوب المكان متحديّة، كان
أحد الأشخاص الثلاثة يضرب العربات والصناديق أمرا أصحابها
بالرجوع إلى الخلف، والباعة يمتثلون لأمره طائعين فيتركهم إلى
غيرهم، بينما الأخران من الثلاثة يدسون في جيوبهم الأوراق النقدية
التي يقدمها الباعة بأقرب ما تكون إلى الخفاء المعلن، مروا به وفعل
معهم مثل أصحابه والتأسف باد عليه قال له صاحبه الذي يحاوره:
لا تحزن، وتعود على مثل هذا كل يوم، وربما كان هذا الأسلوب
بالنسبة إلى ما يفعلونه في الغالب مؤدب جدا، اما النقود التي دفعتها
إليهم احسبها بدل إيجار أو بدل وقوفك في الشارع، المهم لا تتعصب
وخذ الأمر بالمعتاد.

قال أيوب: لستُ حزينا على ما بذلته لهم من نقود ولكني آسف
للطريقة التي يعاملون بها الناس.

قاطعه صاحبه قائلا: أنت لا تعرفهم؟ أم أنك غريب عن هذا البلد؟
لقمة العيش تجربنا أن نصبر مرغمين، ثم إنك لست الوحيد، كلنا
دفعنا لهم بالقوة أو بالمروءة احسبها كما تشاء، وإلا ستجول بعربتك
من مكان لآخر كلما رأيتهم في مكان انتقلت إلى غيره وهكذا، ولك

إن تختار ما يحلو لك، نحن على هذا الحال وربما رأينا في المستقبل أياماً أسوأ من ذلك.

جلس أيوب على حافة العربة مطرقاً وكلمات صاحبه تشعره بالوهن والحيرة، أيترك هذا ويبحث عن عمل آخر؟ ومريم والخاتم الذي باعه ووليدته المنتظر؟ أم يبقى ويتحمل ما يلقاه من هؤلاء وأين يبحث عن عمل آخر؟ لقد طرق ابواباً كثيرة من دون جدوى. فزع لضربة على كتفه دوت صفعتها في أذنيه:

لا تهتم الله كريم قالها صاحبه وهو يعيد على كتفه ضربات متلاحقة وقدّم له سيجارة قائلاً: هاك، احرقها ولا تحرق اعصابك ثم صاح: أبو سلمان هات لنا قدحين من الشاي الثقيل.

قدّم أبو سلمان مسرعاً وبدأ يصب الشاي من الحافظ الذي يحمله بيده مع صينية الاستكانات^(١) ويجول بها بين الباعة. نظر أيوب إلى الشاي وهو ينساب عبر الحافظ ويملاً القدح وتعالق فقاعات وبخار فقال وهو ينهض:

-ما أصعب إن يحس الإنسان بالذل في وطنه وقد بدا عليه الانفعال والأصعب من ذلك إن الذين يذلونه هم من أبناء بلدته. نظر إليه بائع الشاي ببرود.

(١) استكان: تسمية عراقية لأقداح الشاي المعروفة عندهم.

قال صاحبه: اخفض صوتك نحن في السوق.

قال بائع الشاي: اصبر الله كريم.

فعاد يزاول عمله تاركا الصراع لعقله .بقي من بضاعته الشيء القليل فجمعها في كيس وحملها مع كيس النقود متوجها إلى بيته . وضع العربة في الساحة المخصّصة وانعطف إلى الزقاق وفي رأسه تدور الأفكار.

دخل البيت وأغلق الباب خلفه فنهضت مريم للقائه بشوق ولهفة لسماع أخباره، فبادر يقص عليها كيف اشترى وباع وجلس يؤنسها بعدّ النقود ونظراتها تجول بين الأوراق النقدية التي أمامه وأصابه بحركات سريعة .كانت مريم تشعر بالغبطة وتحسُّ إن تعبها وشقاءها أن له إن يزول وهي ترى الثمرة الأولى للمشروع الذي وضعها فيه كل الآمال والأموال، كادت إن تفلت من لسانها بعض الطلبات إلا أنها تماكنت نفسها وكتمتها حتى حين .قام أيوب فاغتسل وصى وجلس معها يتناول الغداء ليخرج بعد القيلولة يعاود عمله من جديد.

كانت شمس الساعة الرابعة عصرا تجبر الباعة على أخذ حمام شمسي على وهج الشارع الأسفلتي، فكانوا يعتمرون قبعات الخوص لدرء شيء من حرارتها ووجهها، وبدأ الناس يتوافدون شيئا فشيئا وارتفعت الأصوات ومعها الرطوبة وساد المكان جو خانق يعلو

صخبه كلما ازداد زحام الناس، فانشغل أيوب أتم الانشغال بعمله ولم يكن يلتفت إلى العرق المتصبب من وجهه ورأسه ولم يكن يرى إلا اصابع الخيار في عربته وكيف يتفنن في عرضها وجذب الناس إليها.

كانت سطوح المنازل متلاصقة تفصل بينها ستارة من الطابوق ترتفع من وراءها أعمدة الاسرة وقد شُدت إليها الكلال البيض ومن بعيد تبدو الأضواء برتقالية شاحبة كأنها النجوم في الليلة الشتائية الصافية، ويشق صمت المكان بكاء الأطفال ومواء القطط التي كانت تجول بحرية بين السطوح، ويُسمع بين أونة وأخرى همس وهممة مكتومة تضي على المكان إحساس يجبر المتحدث على الصمت . فكان حديث مريم وأيوب عشية ذلك اليوم حيويًا ذا شجون، يخططان ويأملان وقد لاح لهما قبس من أمل بدد شيئًا من ظلمة ما يثار بينهما من حديث في كل ليلة، لقد كانت ليلة تختلف عن كل الليالي.

قضى أيوب ثلاثة أيام على هذا المنوال، يغدو صباحًا للتبضع ثم إلى السوق لبييع بضاعته ويعود إلى مريم يذكي احلامها ويطمئننها بيسر الحال . ولا ينسى إن يحمل إليها مؤونة يومها وشيئًا للادخار .

ثلاثة أيام فقط رأت فيها مريم كيف يعود إليها الإحساس بجمال الأشياء من حولها، فبيئتها على بساطته لا يخلو من نفحات جمالية، صباح الباحة، ومكان القيلولة، أما في الليل فذاك جمال خاص،

أشجان تشتعل، وآمال تعلو وتعلو حتى تصل نجوم الليل المتوهجة
الساهرة، تشهدُ سكرات المجنوبين إلى الافاق الرحبة تحرق
جوانحها وتأخذ لبابها فتحيلها نسائم صحو توقظ النائمين على اعتاب
الفرح في لحظات الغيش الأولى. نهض أيوب كعادته وشيء يعتمل
في صدره، بدأ عمله في السوق صبيحة يومه الرابع، وازدحم الناس
والباعة وعلت الأصوات وقبيل منتصف النهار حينما بدأت الشمس
تضغط الهام وتعصرها، جاش الباعة بحركة مضطربة، منهم من
ترك مكانه ومنهم من لملم بضاعته ووقف يترقب وانخفضت
الأصوات ويعلو بين حين وآخر صوت يطلب من الباعة تخلية
المكان، تبادل الباعة نظرات الدهشة لما سمعوه من المراقب
وتوجهوا إلى اليه بالسؤال:

إلى أين نذهب؟

قال المراقب: اذهبوا إلى اية مكان آخر، اذهبوا إلى الساحة أو إلى
باب المشهد، المهم هذا المكان لا يُسمح لكم التجمع فيه، وإذا وجد
احدكم غدا صباحا ستحجز عربته ويغرم.

مر موكب المراقب مخترقا صفوف الباعة الذين انشغلوا بأنفسهم
وعيونهم تلهب المراقب وجماعته بنظرات الحرقه والجزع
واللوعة، وتضاربت آراؤهم بخصوص الامر الجديد فمنهم من

يقول: سمعنا مثل هذا كثيرا وأشار بيده كالذي يعد النقود وينتهي الامر.

وقال الاخر: سأنتقل إلى مكان آخر. وهكذا ظلوا يتبادلون الآراء إلى إن عاد السوق إلى حركته الأولى فانشغلوا بالبيع. أما أيوب فقد بقي يسمع من الآخرين دون إن يبدي رأيه فقد أحس بالوهن يدب في أوصاله ولاحت بين عينيه آثار الضربات الأولى من هدم آماله الغضة الطرية.

لم يبد شيئا مما حدث في السوق إلى مريم حينما عاد إلى بيته في ظهيرة ذلك اليوم بل كان على عادته، بعد القيلولة خرج إلى السوق وقف مكانه رتب بضاعته وتوافد الناس وبدأت الحركة، فتندمج أصوات الباعة وتحيل المكان إلى ضجيج يلهي الإنسان عما حوله. ولذا لم ينتبه أيوب ورفاقه إلى موكب المحافظ والحرس الذين جابوا المكان بزيتهم وطباعهم المعروفة، وأخذوا في الحال يقبلون الخضروات على اسفلت الشارع ويدوسونها بأحذيتهم أو يرمونها في الشط.

جاش المكان بحركة مشوشة، فقد راح بعض الباعة يهربون ببضاعتهم وآخرين يتوسلون ويجادلون مستفسرين، وأيوب لم يستطع أن يهرب أو يجادل بل وقف يرقب الحرس وهو يحمل صندوق الطماسة ويلقي به في الشط فتغطس الحبات لتعود طافية

من جديد وقد بدت لامعة وهي تطفو تباعا فيأخذها التيار بدوامات سريعة فتختلط مع الخضروات الملقاة في الشط ولم يعد يستطيع تمييز بضاعته من بضائع الآخرين فقد اندمجت وأصبحت مائدة طويلة تطفو وسط النهر.

هيا تحركوا انتبه أيوب إلى الشرطي وهو يأمرهم بالتجمع جانبا تاركين عرباتهم في اماكنها.

تجمهر الباعة في جانب من السوق ووقف قبالتهم المحافظ بيزته العسكرية وكرشه النافج من تحت اضلاعه وقد ادخل ابهاميه تحته بصعوبة واخذ يتحدث مع أعوانه ويشير برأسه إلى الباعة، فتبادر الشرطة يجمعون العربات وسط السوق يقلبونها الواحدة فوق الأخرى وركض شرطي نحو السيارة وعاد مسرعا وهو يحمل بصعوبة غالونا اخضر وضعه قرب العربات ووقف بقربه وعينيه ترنو إلى المحافظ.

أحاطت الشرطة بالناس وبدأ الشرطي يسكب البنزين على العربات بعد إن تلقى الامر من المحافظ بحركة من رأسه، وفاح المكان برائحة غريبة، البنزين وإنفاس الباعة ورائحة الحراس والشرطة ووهج الشمس الذي يعصر الأشياء كلها.

نظر أيوب إلى عربته مقلوبة فوق العربات وقد بدت عليها بقع السائل ذي الرائحة النفاذة، تأملها بنظرات فاحصة وجد دواليبها

الثلاثة كأنها عيون ترقبه تستجدي منه العون لينفذها، ولا يعرف لماذا كانت عيون مريم تزامم أفكاره في تلك اللحظة. لقد كانت عيون مريم واسعة سوداء ضاحكة حينما تستقبله وهو عائد للبيت في الظهيرة أو المساء، فجأة دوى انفجار أربع أيوب وعاد به إلى المكان وارتفع دخان أسود تصاعد عاليا تبعه لهب أصفر وفرقة شديدة وانتشرت دائرة النار والدخان وأحاطت بالعربات من كل جانب وساد صمت فوق اللوعة والحسرة التي بدت في الوجوه . والنار تفور وتغلي تحطم كومة العربات التي بدأت تنزلق وتنحدر إلى الأسفل فتزداد الدائرة اتساعا وحولها الناس والباعة يتراجعون خطوات، أخذت النار تذيب اسفلت الشارع وكأنها تتقد من باطن الأرض، استدار المحافظ مسرعا نحو سيارته مشيرا إلى أعوانه بكلمات غير مفهومة وانطلقت سيارته وسط الحشد مسرعة، فبادر بعض الباعة لإنقاذ ما تبقى إلا أن الشرطة منعوهم وبدأت الأصوات تعلق باللعن والأسف وأشياء أخرى. أما أيوب فقد تسمرت عيناه في عربته التي تأكلها النيران ولم يبق منها غير حديد الدواليب وبقايا أخشاب محترقة تأملها جيدا وانتبه إلى بعض الألواح الخشبية لم تأكلها النار بل تصاعد منها دخان أسود كثيف يدور بدوامات ويتصاعد للأعلى، فتذكر النجار الذي باعه العربة وقرر أن يعاتبه لأن الأخشاب لم تكن من نوع واحد.

كانون الثاني ١٩٩٧

حوار الأضداد

قرأ صديق لي أعزب حكاية حريق العربات وقد أعجب بشخصية مريم وعلى إثر ذلك كانت حكاية حوار الاضداد.

لم يكن أيوب يبدي أية اهتمام لما يدور حوله عندما كان يسير في شوارع الحلة، يصادف اصدقاءه ومعارفه فيحيونه إلا أنه لا يرد يعرفهم ويسمع كلامهم ورغم ذلك لا يرد يمشي دون هدف، ترك العنان لأقدميه تقوده حيث تشاء وحينما يشعر بالتعب يتوقف قليلا أو يستريح على قارعة الطريق. لم تكن لديه القوة الكافية ليرد التحية، دخل السوق الكبير حيث كانت الملابس المعلقة على واجهة الدكاكين ترتطم برأسه فلا يميل عنها أو يميلها بيده.

اهلا أيوب (مر أمام دكان صديقه سيد دون قصد فلم يرد أو يلتفت).

ربما لم يسمعني، قالها سيد مع نفسه ثم قام ووقف بباب الدكان ونادى: أيوب، أيوب ماذا دهاك؟ ما الذي حصل؟ لا يُعقل أنه لم يسمعني أخشى أن يكون مريضا، أو عنده مشكلة، ينبغي أن أذهب إليه وأعرف منه الخبر، تبعه سيد مسرعا ربت على كتفه قائلا:

-أيوب هل أنت مريض؟

أيوب: التفت اليه والدهشة بادية عليه وكأنه لم يره أو يسمع ندائه:

أهلاً سيد.

سيد: هل أنت مريض؟ لقد ناديتك مرارا إلا أنك لم تجب فقلقت عليك وأتيتك لأعرف السبب.

أيوب: لا، إنا بخير والحمد لله، إلا إن فكري مشغول ولم انتبه، اعذرني فقد اتعبتك.

سيد: لا، ولكن لأطمئن عليك، تفضل معي استرح قليلا قبض على يده يقوده إلى الدكان.

انقاد أيوب دون اعتذار وكأنه مازال تائها في ذكرياته.

سيد: اجلس هنا ارجوك، وحدثني عما أصابك لعلني أستطيع أن أقدم لك يد العون (أكمل كلامه هو يملأ قدحا بالماء البارد ويقدمه لأيوب): تفضل اشرب. (أفرغ أيوب قدح الماء في جوفه بشرية واحدة).

سيد: أبو مذكور صب. (انتبه أيوب إلى بائع الشاي أبي مذكور وهو يملأ استاكانين فأجال بنظره بينهما واستقر على استكان الشاي فوجده راكدا بلا فقاعات بل بقايا أبخرة تتصاعد كأنها عقب سيجارة).

اشرب، ندبه إلى شرب الشاي صديقه سيد الذي كان يقف خلف منضدة الدكان، ثم استأنف الحديث: حدثني ما الذي حصل؟ حالك غريب عليّ ولا يعجبني!

أيوب: (أخذ رشفة من الشاي ثم أعاده وبدأ يذيب السكر فيه ثم أخذ رشفة أخرى): أسمعَتَ شيئاً عن حريق العربات؟

سيد: الحريق مستغرباً أي حريق؟

أيوب: آه. حريق العربات.

سيد: (يحاول إن يتذكر) آه. نعم في السوق؟

أيوب: نعم في سوق الخضار.

سيد: وهل؟

أيوب: (مقاطعاً) نعم كانت عربتي ضمن العربات واحترقت معها أشياء كثيرة.

سيد: ماذا تقول؟ أشياء؟

أيوب: لقد وضعت فيها كال ما أملك من مال وآمال.

سيد: إنا آسف لما حصل، الحقيقة لم أكن أعرف أنك كنت تعمل ببيع الخضار، والآن ماذا تعمل؟

أيوب: أعمل! أقول لك أحترق معها كل ما عندي وتقول ماذا تعمل؟

سيد: عفواً أقصد كيف تدبّر امورك الآن؟

أيوب: كما ترى.

ساد صمت بينهما ودخل كل واحد منهما عالمه اللامحدود، ثم بدأ سيد يجمع بعض الملابس المعلقة في الدكان ويضعها على المنضدة أمامه ثم توجه إلى أيوب قائلاً:

الذي فهمته منك إنك تقضي يومك بالتجوال، اليس كذلك؟

أيوب: أوماً برأسه مجيباً.

سيد: هذه الملابس مطلوبة في الوقت الحاضر فهذا موسم بيعها أو شيء منها، وسأعلمك بالمبلغ الذي أريده منك والباقي من نصيبك.

أيوب: (نظر في وجهه واجماً) .

سيد: اسمع ولا تقل أي شيء، هيا توكل على الله واحملها إلى شارع يخطر ببالك فالأرزاق في كل مكان.

انقاد أيوب لرأي صديقه دون اعتراض، رتب الملابس على كتفه وحمل بعضها منها بيده على هيئة معروفة عند الباعة المتجولين وأعاناه سيد على ذلك، ثم خرج من الدكان مستأنفا رحلة التأمل في دنيا الهموم والأحزان.

عاد أيوب إلى بيته في ظهيرة يومه ذاك وهو يحمل القطع المتبقية عنده مجتازاً الزقاق المؤدي إلى بيته سالكا جانب الطريق المشمس، دق الباب.

مريم: مَنْ؟

أيوب: إنا.

فتحت مريم الباب وقد ارتسمت على محيّاها الدهشة بعد أن رأت زوجها يحمل الملابس على كتفه (قالت: ساعدك الله) وأخذت منه الملابس رغم حيرتها ودهشتها ولم تبادر بالسؤال.

أيوب: السلام عليكم (تقدمها إلى الغرفة كعادته وهما ما بين الحيرة والفرحة).

أما مريم فقد علقت الملابس ودارت أمامه تلبية احتياجاته التي اعتادت أن تقدمها له عند دخوله البيت والابتسامه تدفع حزنها ولا تدعه يطفح على عينيها أو وجنتيها. بعد أن أكمل غداءه وانكأ على وسادته جلست قبالته تسقيه الشاي وفي عينيها لهفة لا يغيثها إلا مبادرته بالإفصاح عما حصل له اليوم.

أيوب: دعاني أحد الأصدقاء لبيع الملابس، وقد لبيت طلبه وبعث بعضها، على أمل أن أكمل بيع المتبقي.

ألقت مريم ما في يدها وافتترشت الأرض بجلستها وكان حملاً ثقيلاً رُفع عن كاهلها وعيناها تدور في وجه أيوب إلا أنها لم تسطع أن تحبس لؤلؤة طفرت من بحر الحور ذلك.

أيوب: ما هذا؟ لماذا البكاء؟

مريم: (مسحت دمعنها بسرعة وأخفتها في كفها) ما أبكي ولكنه
الفرح ويلي إن بكيت بوجهك (مست جبهتها بطرف كفها كالعاتبة
على نفسها).

أيوب: لقد وعدني بنسبة من الأرباح (سمع طرقا على الباب فنادى):
مَنْ؟

بتول: أنا.

مريم: هذه بتول، سأفتح أنا (فتحت الباب ودخلت بتول وهي تحمل
على رأسها صينية مغطاة بشرشف، فأخذتها منها وبادرتها
بالسؤال): ما هذا الذي تحملينه إلينا؟

بتول: هذا نذر وقد اطعمنا منه الجيران أولاً، وأنتم آخر من تبقى
ليس بصدقة ولا إحسان.

مريم: في الظهيرة؟ كيف سمحوا لك بالمجيء؟

أيوب: ما الخير؟ لما لا تدخل هل حدث شيء؟

مريم: ماذا فعلت يا بتول؟ (معاتبة بهمس: فهذا وقت راحته ثم دخلت
إلى الحوش وخلفها اختها بتول) قائلة:

ما أدراني؟ أمي قالت.

مريم: موجهة كلامها إلى أيوب هذا نذر أطعموا منه الجيران وقد أرسلوا بتول، إذا كنت لا تقبل نعيده فقد تغدينا والحمد لله، خذي يا بتول هذا الطعام لقد تغدينا وإن بقي سيفسد.

أيوب: على رسلك يا مريم لا بأس اقبليه وشكر الله سعيهم (ثم وجه كلامه إلى بتول) قائلاً: تفضلي بتول أجلسي واشربي الشاي معنا لأوصلك بعدها إلى البيت، هل تغديت؟

بتول: لا. آه نعم نعم وأمي تريد مني أن أعود بسرعة.

أيوب: حسنا ناوليها الصحون (موجهها كلامه إلى مريم) لأوصلها، ثم خرج أمامها وهي تتبعه، (لحقتها مريم قبل أن تخرج وهمست في أذنها على عجل): قولي لأمي إن أيوب وجد عملاً.

بتول: فرحة صحيح؟ أين؟

مريم: هيا لقد خرج اتبعيه وسنكمل فيما بعد.

في اليوم التالي ذهب أيوب إلى دكان صديقه سيد:

أيوب: السلام عليكم.

سيد: عليكم السلام أهلاً أيوب.

أيوب: أهلاً بك سيد هذا المتبقي (وضع قطع الملابس على المنضدة) وهذا المبلغ (أخرج من جيبه أوراقاً نقدية ناولها إياه).

سيد: لماذا أنت على عجل.

أيوب: (مقاطعا) لا سيد ارجوك نتحاسب كل يوم أفضل عندي.

سيد: نعم، نتحاسب وأنت لا تأخذ إلا جهدك ولكني أقصد إن بإمكانك التصرف بالنقود إذا احتجتها.

أيوب: أشكرك أنا مرتب معيشتي بحسب دخلي، ولا أود التكلّف أكثر من ذلك.

سيد: كما تحب، واليوم أنت الذي تختار الملابس حسبما عرفته من طلبات الناس.

مضت عدة أيام وأيوب على هذا الحال، يأخذ الملابس يبيعها ثم يعود في اليوم التالي للحساب. في أحد الأيام خطرت في باله فكرة وهو عائد إلى البيت مساء:

لقد صنع معي سيد معروفا لن إنساه طوال حياتي فمثله قليل في هذا الزمن المر، فكيف أبدي له شكري وامتناني؟ أعتقد أن دعوته إلى الغداء مناسبة، وليعرف أن أوضاعي المالية في تحسن.

في صباح اليوم التالي توجه أيوب إلى سيد للتبضع والدعوة للغداء:

سيد: أعذرني، إن شاء الله في المستقبل سألبّي دعوتك ولا داعي لذلك في الوقت الحاضر ثم إن.

أيوب: (مقاطعا) سيد لابد من ذلك فقد تهيأت له قبل أن أدعوك كي لا تعتذر، أما إذا أردت إن تسبب لي إحراجا أو تجعلني أظن إني غير قادر على دعوة ضيف إلى بيتي، فهذا أمر موكل إليك.

سيد: لا، عفوا إنا لا أقول إنك لا تستطيع ذلك، ولكن لا أجد الداعي لإن تكلف نفسك وتتعب عيالك.

أيوب: لك إلا أكلف نفسي ولا أتعب عيالي، اتفقنا؟

سيد: (مبتسما والاحراج باد عليه) لا بأس فلا مفر من ذلك، ولكن أرجوك من دون تكلف.

أيوب: (وهو يهم بالخروج) سأعود إليك قبيل الظهر.

حمل أيوب ما تمكن من شرائه إلى بيته فرحا تملأ أساريره البهجة ففي مَقْدَم هذا الضيف خرقٌ لظلمة ما عاناه وتجديد لأحواله. عندما وصل إلى البيت وجد أن بتول في زيارة أختها فبادر قائلا:

كان في نيتي إن أرسل في طلبك لتساعدي مريم، عندي اليوم ضيف على الغداء.

بتول لا مانع عندي سأخبر أُمي وأعود.

أيوب: لا، سأخبرهم إنا في طريقي إلى السوق.

كان سيد يشعر أن كل خطوة يخطوها وهو في طريقه إلى بيت أيوب

هي دخول إلى بيت، وكان وقع قدميه على الأرض طرقاً أبوابٍ متعددة. ولم يستطع إن يحصي كم مرّة مسح جبينه وجبهته من فرط التعرّق إخراجاً وخجلاً بلغ ذروته عندما وقف قبالة باب الدار ورفع أيوب كفه وطرقها طرقاً خفيفاً أو عز لقلب سيد أن ينبض بلا حساب ولقدميه ويديه إن تتحرك بلا سبب وجيه.

مريم: من؟

أيوب: إنا.

بتول: أكلمي أنت، أنا سأفتح (تركت أختها في المطبخ وتوجهت لفتح الباب).

أيوب: السلام عليكم، تفضل سيد أهلاً وسهلاً (ودخل يفتح غرفة الضيوف).

سيد: (وهو في مكانه لا يعرف أيدخل الآن أم بعد حين، فنظر إلى أيوب الذي دخل أمامه مسرعاً، ما إن رفع طرفه حتى وقع في بحر أسود عميق الغور وراح يهوي فيه بسرعة مذهلة أو كأنه صورة صغيرة تسقط في بئر عميق، حاول أن يخلص نفسه، أدار وجهه ناحية).

أيوب: تفضل سيد لم لا تدخل (استدارت بتول مسرعة إلى الداخل حينما دخل سيد الذي كان يهمس مع نفسه):

كيف قبلت الدعوة؟ ما هذا الإحراج الذي وقعت فيه ألم أكن أريد إن أنظر إلى أحد من أهل الدار، لقد جرى كل شيء بسرعة اذهلتني، ترى ماذا ستظن بي؟

أيوب: تفضل سيد أنت في بيتك، وما عندنا أحد غريب، أهلي واختها وأنا، وهما بمعزل عنا فكن على رسلك، أجلسه في غرفة الضيوف واستأذن على أن يعود سريعا.

جلس سيد على مقعد ذي طراز قديم فارتفعت إلى رأسه حرارة كأنها رد فعل لجلوسه وهو يهوي في واد سحيق، مسح جبينه المتعرق متفحصا المكان حوله، فقد كانت الغرفة على النمط الشرقي القديم، معزولة عن بقية الحجرات تفوح منها رائحة الأثاث المحمل بعبق الصعيد ورطوبة الجدران، وسقفها المرفوع على جذوع النخل مستور بقماش غير الزمن لونه الأبيض وقد بدت فيه نتوءات تتحرك مسرعة نحو الحائط تدور في أركانه.

أيوب: تفضل سيد توضأ فالأذان قريب.

وجد سيد بعد إن تَوْضاً ودخل الغرفة أن أيوب قد فرش أرضها بفجّة
(١) محلّيّة ووضع سجادة نحو القبلة.

أيوب: ماذا تقول على الأرض أفضل؟ مشيراً إلى مائدة الطعام.

سيد: نعم، نعم فإننا أرغب بالجلوس على الأرض (ثم انشغل بصلاته)
جلب أيوب السماط ووضع في الوسط وبدأ يحمل الطعام فامتألت
الغرفة بروائح طيبة. أكمل سيد صلاته وجلس قبالة المائدة المفروشة
على الأرض التي أعدت إعداداً بسيطاً لكنه جميل ينم عن ذوق
ونفس طيبة لأهل الدار.

سيد: ما هذا يا أيوب؟ ألم نتفق على ألا نتكلف أو نتعب أهلك؟

أيوب: نعم، وأنا عند وعدي، لم أتكلف ولم أتعب أهلي، فقد حضر
من يساعدها وما تراه أشياء بسيطة (مبتسماً) حذاقة النساء حولتها
إلى مائدة متنوعة، تفضل كلٌ ولا تشغل بالك فما تراه لا سبيل إلى
إعادته سيرته الأولى.

سيد: وهو ينشف الماء عن يديه بالمنديل جعلها الله سفرة دائمة
عامرة لقد كان طعاماً طيباً يحكي طيبة نفوس أهله.

(١) الفجّة: تسمية شعبية عراقية لنوع من البسط المصنوعة يدوياً.

أيوب: هنيئاً أنت من أهل الخير وحقك أن تحصل على الطيب
وبعونه تعالى نوافيك يوم عرسك.

سيد: أطرق مبتسماً أشكرك.

نهض) أيوب (بعد إن سمع قرعاً خفيفاً على الباب ليعود وهو يحمل
استكانين من الشاي قدم أحدها إلى سيد قائلاً:

ألا تفكر بالزواج؟ أرجو إلا أكون قد تدخلت في خصوصياتك، فأنت
عزيز عليّ وأحب لك الخير.

سيد: لا بالعكس ليس تدخل ولا لكن نفسياً لا رغبة لي بذلك.

أيوب: متعجباً نفسياً!

سيد: لا تظن بي الظنون، نفسياً نتيجة لما يكتنف الزواج من أمور
مالية أو عائلية أو اجتماعية وما شاكل ذلك.

أيوب: مع الاعتذار مقدماً، أعتقد إنك تعطي الأمور أكثر من حجمها
وهذا دافع نفسي عندك، لاهتمامك البالغ برضى المحيطين بك، ولو
على حساب نفسك، وهذا من كريم أخلاقك ولكن كما يقولون إن
إرضاء الناس غاية لا تدرك، أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك بكلامي
وإنما هو تبادل الآراء.

سيد: لا، بإمكانك إن تقول ما تحب فإننا نحترم رأيك.

أيوب: (مقاطعا على نحو المداعبة المكنونة الجديّة) سيد إذا رغبت بامرأة تُسعدك وتكون لك عوناً (ضرب على صدره بيده) فهي عندي.

سيد: (ضاحكا ومستفسرا من طرف خفي) صحيح؟ مَنْ؟

أيوب: إذا رغبت بذلك حقا (هامسا) بتول أخت زوجتي، شابة من نمط خاص أقصد من النوع النادر الذي يصعب الحصول عليه في هذه الأيام وكذلك أنت (ابتسم سيد واطرق وبدأ دوامة مسح العرق عن جبينه) وأنا أجد إنكما متلائمان وسيسعد أحكما الآخر صحيح أنها لم تكمل تعليمها إلا أنها ستكون زوجة ناجحة فقد نشأت في بيت طيب، وأما من ناحية الطلبات والأمور المالية لا تشغل بالك فأنا.

سيد: (مقاطعا لأنه شعر كأن المجلس مجلس خطبة) لا، أيوب ليس بهذه السرعة، لقد فاجأتني.

أيوب: لم أقصد ذلك، فلقد دار الحديث ووصل إلى هذا الحد بحسن نية.

سيد: لا بأس ولكني كما قلت لك لم أفكر بالموضوع بجديّة ولو على نحو الاجمال.

أيوب: كما تحب، فكر، وإذا رغبت أخبرني لأحدثك بالتفاصيل.

استلقى سيد على فراشه وهو يحس بأن رأسه يكاد يتفرع منه عدة رؤوس عندما كانت تدور أحداث اليوم في ذهنه فقد كان قد استأذن

صديقه أيوب للعودة إلى بيته، وفي طريق العودة كان الذي يشغل تفكيره إعادة النظر فيما حصل اليوم، الإحراج ودعوة أيوب والأهم من ذلك فكرة الزواج، بل الأهم أن الزوجة المقترحة كيان حقيقي موجود وقريب منه، يا لها من فكرة حاسمة بيني وبين العزوبية (ابتسم مع نفسه) أياكون ذلك! غمض عينيه محاولاً النوم والهروب من التفكير بالأمر.

كانت السيارة المنطلقة إلى الكاظمية لا تمثل في نفس سيد وسيلة نقل حديثة بل كانت قطعة احراج طرية متجسدة أغمس في مقعدها الخلفي مع الفتاة التي وافق على الاقتران بها، فزاد ذلك على إحراجه نبعاً متدفقا من الإحراج لا ينقطع ولا ينتهي، ففاض في ملابسه كأنه قادم من زمن آخر وأجبر على طراز جديد غير معهود عنده من الملابس، حتى إنه أتعب مسامات جسمه كلها التي راحت تنفق آخر ما تحويه من عرق يتلقفه مندليه النهم الذي لا يشبع من وليمة العرس هذه.

طوال الطريق لم يلفظ حرفاً واحداً وكأنه لا يريد أن يبطل صمته المقدس، ووقفت السيارة أمام الفندق ضجرة أن أحداً لم يتكلم إلا المحرك قال سيد محدثاً نفسه: يا للوعة، أنزل من السيارة وأصحب الزوجة بل اصطحب فكرة الزواج برمتها وأدخل الفندق! إلا بل أدخل معها في حجرة المؤتمر الأكبر، حجرة إعدام العزوبية. يا له

من موقف! أنا والزوجية تحت سقف واحد بين جدران أربع والباب مغلق، من سينتصر؟ العزوبية وما فيها من حرية أم الزوجية وما تحمل من أعباء لا تنقطع؟

ضجرت بتول من طول جلستها على السرير مطرقة وهي ترى أن سيد يتشاغل عنها بلا شيء فأرادت أن تحرك الموقف وتبدي هجوما إيجابيا لتستدرج فكرة العزوبية المتجسدة أمامها، فطفقت ترتب الملابس في الدولاب تهيئ الغرفة على أكمل وجه وكأنها مكانها الدائم، فدارت في جميع الأرجاء من فسحة الجلوس إلى السرير إلى الحمام دون أن تجرؤ وتتنظر في عيون ملك العزاب وهو كذلك لم ينظر في وجه الفكرة المتبرجة المتجسدة والمتحركة أمامه، إلا إنه لم يستطع أن يمنع نظراته من متابعة ذيل ثوبها المنسحب خلف كتلة الطيبة والحنان الدائرة أمامه.

سيد: (محدثا نفسه) ماذا أفعل؟ أحقا أتزوج أقتل عزوبيتي؟ حريتي؟ سلطتي؟ وأشياء أخرى خافية؟ لا، لا أحتمل ذلك، كيف وافقت وجرت الأمور بهذه السرعة؟ ماذا فعلت بي أيوب؟ أهذا جزائي؟ سأتركها وأهرب بل سأعيدها إلى ذويها فهم أولى بحملها، أما أنا فلا، آه، ما هذه الأفكار، ما هذه الرائحة، هذا التعرق أزعجني سأغتسل، نعم هذه أحسن فكرة، أغتسل واستعيد نشاطي. (نهض متوجها إلى الحمام يحمل معه منشفته، وتول تتابعه بنظراتها

متعجبة .خرج من الحمام ورأسه ملفوف بالمنشفة وجلس متراخيا على الكرسي محدثا نفسه :نعم الماء البارد أنعشني، ثم التفت إلى بتول خجلا إنه تحدث مع نفسه بصوت مسموع.

اما بتول فقد فهمت، لعله يريدني أن أغتسل أيضا فقامت من فورها ودخلت الحمام، سمع سيد صوت اغلاق قفل الباب من الداخل، فبسط رجله واضعا رأسه على متكأ المقعد الخلفي، محدثا نفسه: لقد أتعبتها وأربكتها ترى بماذا تفكر الآن ماذا تقول عني؟ وما ذنبي أنا، أريد التمسك بحريتي.

بتول :سيد (سمع صوتها تناديه فأصاخ السمع دون كلام) .سيد ، سيد (أشم رائحة الغاز في الحمام ،)سيد (الباب لا يفتح ، هذا القفل لا أعرف كيف أديره).

سيد: (محدثا نفسه) أأقوم افتح لها الباب؟

بتول :سيد (أرجوك هل تسمعي إن الرائحة تتزايد).

سيد :ما بالي لا أتحرك !أصحيح ما أفعله؟ الزوجية تدعوني، تستغيث بي، وأنا لا أتحرك؟

بتول :سيد رائحة الغاز تخنقني (ثم أخذت تطرق الباب) سيد أرجوك (ازداد الطرق على الباب) سيد، سيد، سيد، سيد (صارخة بأعلى صوتها). نهض سيد من فراشه مرعوبا والعرق

يتصعب منه فتناثرت أوراق القصة من بين يديه على الأرض، وأمه
تناديه بعتاب أنه نام وترك إبريق الشاي يطفح ويطفئ نار الطبخ
الغازي مما أدى إلى انتشار الغاز في أرجاء المنزل.

١٩٩٧/ ١٠

أصوات لا تُنسى

ألقى سعيد حقيبة سفره على الأرض المكسوة بخشب الابنوس اللامع واستلقى على السرير، تاركا لأوصاله حرية التمدد والراحة حسبما تريد، ففي هذه اللحظة أستجمع كل شتات السفر وآلامه وراح يتمتع بلذة الوصول وإلقاء المتاعب عن نفسه وجسمه شيئا فشيئا.

قال :وأخيرا، وصلت، هذا أقصى مكان يمكن أن أصل إليه، بلاد بعيدة، أناس غرباء وإنسان جديد، سأحيا زما واحدا ولن أكون ازدواجيا أو أشطر زمني نصفين، سأعيش الزمن السعيد فقط، نعم سألقي تلك التبعات كما ألقى متاعبي الآن.

سمع طرقات على الباب، أستنهض قواه المنهوكه وقام ليفتح، وإذا بسيدة شقراء بدينة تحمل شرشف بيضاء تتحدث بلغة غير مفهومة عنده. أحس سعيد وكأنها ترحب به وتسأله عن أشياء لم يفهمها، وضعت الشرشف على السرير وخرجت مسرعة وهي تلوح بيدها، شيعها بنظراته المتسائلة الواجمة وراح يرتب أشياءه.

عادت السيدة بنبراتها المسترسلة وناولته خارطة وهي تطلب منه إن يشير إلى موضع فيها. فهم أنها تريد معرفة بلده، فرش الخارطة

على المنضدة الموضوعة قرب الشباك المطل على حديقة المنزل
وأشار بسبابته، فقالت السيدة بدهشة:

-أوه ، بابلون ، إراك.

ثم توالى على شفيتها كلمات استطاع إن يميز شيئاً منها، انفجارات
وقنابل وطائرات وأطفال جياح وإشارات تنم عن تعاطفها وحنوها،
ظل محدقاً بها محاولاً أن يفهم أكثر ما تقول إلى إن خرجت وأغلقت
الباب خلفها.

رتب سعيد فراشه ممنياً نفسه بنوم هادئ عميق بلا هموم وكوابيس
، تفحص طويلاً سقف الغرفة وقد فك عقال ذاكرته لتستعيد المشاهد
الجميلة التي رآها في طريقه إلى هذا البلد النائي ذي المساحة التي
لا تتعدى المليمترات على خارطة العالم ضمن سواحل البحر المحيط
، غابات الصنوبر تكسو الجبال بخضرة داكنة على أرض مفروشة
بأوراق صفراء مخضرة لم تعبث بها قدم إنسان ، سواحل واسعة
توقد الرغبة في ذلك الجسد المتعب المثقل بعبق البحر يحمله كوكبا
يخترق كل المدارات ليصل إلى الحركة المطلقة بعيداً ، بعيداً في
الكون الرحب ، لا قيود ، لا كوابيس بشرية تشدّ الآمال المشروعة
إلى وحل الظلمات المتراكمة.

تحية إلى مستمعي برامجنا (نغمات موسيقية كان قد سمعها في
الشرط الآخر من الزمن).

سعيد: آه، كيف قفزت إلى ذهني هذه الذكريات الثقيلة المرّة، لا لن ادعها تفسد عليّ متعتي.

(تعالت الأصوات) أهلا بكم مستمعينا الكرام وفيما يلي نشرة الاخبار صرّح مسؤول في الأمم المتحدة أن.

سعيد: فرعا (يا الله، ما هذا؟ كأنه صوت حقيقي، هل كُتب عليّ أن لا أنس؟ لماذا لا تفارقني تلك الأفكار الملعونة.

(تعالت الأصوات أكثر) إن العدوان الثلاثيني على..

سعيد: فتح عينيه محدقاً، وأرهف السمع جيداً: هل كنت أحلم لا، لا يمكن أن يكون حلماً (جلس في فراشه فزعا مرعوباً وعيناه تدور في المكان) نعم، أنا هنا، هذه الغرفة، وهذا السرير وهذه حقائب السفر، إنه ليس حلماً، ليس حلماً، من أين يأتيني هذا الصوت؟ هل حدث شيء في عقلي؟ (تلقت كالمعتوه في زوايا الغرفة): الصوت يقترب مني ويعلو أكثر، هل وصلوا اليّ؟ أيعقل ذلك؟ ألدبهم هذه القدرة؟ (جفل مرتعشاً وأوصاله ترتعد وبحركة سريعة ضم ركبتيه إلى صدره وطوقهما بذراعيه وعيناه جاحظة مسمّرة في الباب الذي فُتح بقوة على مصراعيه، وإذا بالسيدة تحمل جهاز المذياع متجهة نحو سعيد تلوّح بيدها وتتطق بكلمات فرحة جذلي، أنها استطاعت إن تضبط مؤشر الراديو على الإذاعة، لعل سعيد يفرح بسماع أصوات لا تُنسى. ارتخى سعيد على الفراش كالمغمى عليه محدثاً

نفسه :أيعقل هذا؟ طويت المسافات مبتعدا بكل ما أوتيت من قوة،
وجئتيني بهم !أفي هذا المكان أيضا؟

نهض إلى الخارطة، تفحصها بعصبية، ثم أخرج عدسة مكبرة يبحث
عن مكان بدائي لم تصله حتى المناديل الورقية.

١٥ كانون الثاني ١٩٩٨

ترانيم على وتر الوجد

انطلق سهيل مسرعا نحو الازقة الضيقة المتعرجة، لعله يتخلص من سيل الاطلاقات النارية التي كانت تلعلع خلفه، ويخطف ازيها سمعه فينعطف في اتجاه مغاير فتسبقه متشظية في طابوق الجدران المتهزئة لتصنع اقواسا من جمر ما يلبث أن ينطفئ أمامه.

زقاق يفضي إلى زقاق وخطوات لاهثة تتبعها خطوات، يعدو خلف مكان آمن تحمله اليه قدماه على غير موعد أو اتفاق.

أصوات من بعيد: دخل من هنا لا تدعوه يفلت منكم.

كأن الرصاصات كلاب صيد تزجرها الكلمات فيزيده سماعها خفة تذكي عنده سرعة المبادرة نحو أمان كان يحسه بشعور غير مألوف عندما عرج إلى زقاق لا يكاد يسمح بمرور شخصين، تظلل الأبنية المتجاورة المتلاصقة في بعض الأحيان.

قال في نفسه: إنه مغلق ولا يفضي إلى أي مكان. كانت نهاية الزقاق جدارا عاليا تطل منه شناشيل^(١) متداعية، في وسطه باب خشبي

(١) الشناشيل: تسمية عراقية لنوع خاص من الشبليك تكون كبيرة مصنوعة من الخشب المحفور بزخارف نباتية وهندسية توضع في الطابق الثاني من الدار مطلة على الزقاق أو اشارع وتكون ناتئة عن البناء بمقدار ٧٠ سم تقريبا.

ضيق تلقاه ببديه من فرط سرعته ثم استدار نحو مدخل الزقاق . همّ بالرجوع، سار بضع خطوات متوجسا، فاجأته الاطلاقات وهي تخترق الجدران أمامه، عاد إلى مكانه متحيرا، أسند ظهره إلى الباب الخشبي الضيق، رفع طرفه للأعلى لعله يستطيع إن يتسلق لكن دون جدوى فالجدران عالية وما من سبيل إلى ذلك.

ساد صمت رهيب للحظات فكر فيها إن يطرق الأبواب، تعالت الأصوات:

من هنا، من هنا.

لقد سار بهذا الاتجاه.

وفجأة أحس بضربة على كتفه ويد أمسكته وسحبته إلى الخلف بقوة فسقط متمددا على ظهره وبحركة سريعة شمر مسدسه الفارغ وسط ظلام أفقده التعرف على ما حوله، لم يتحرك أو يبدي شيئا، وأخذ الصمت والسكون المرعب.

لا تتحرك. (سمع نبرات خافتة حذرة وشعر بأنفاس متعالية مكتومة على مقربة منه، استدار ناحيتها، لم يستطع إن يميزها فعاد إلى سكونه مسلما امره لقدّر مجهول) .

اين ذهب؟ فالزقاق مغلق، أيكون قد سار في الاتجاه الآخر؟ (سمع الأصوات من خلف حاجز الظلام الذي يلفه من كل جانب).

قلت لكم لا تدعوه يفلت منكم، إنه يحمل سلاحا، ماذا لو فاجأنا من زاوية؟

أحس سهيل ببرد الحديد بين يديه فتمسك به وهو ينصت إلى النبرات الخافتة: خذ، إنها محشوة(، قال في نفسه أنها بندقية).

كانت عيناه قد بدت تعناد الظلمة والأشياء تتمثل عنده أشباحا، صوب البندقية نحو الأصوات، وأر هف السمع.

هيا نبحث في الازقة المجاورة وليبق اثنان منكم في المدخل، هيا بسرعة.

سمع سهيل وقع اقدمهم وهي تبعد متراكضة، فجلس والبندقية بين يديه متحصصا المكان الذي حل فيه فجأة على غير موعد، بانته أمامه خطوط الضياء العمودية والافقية من خلال الشقوق وسط الباب.

-الحمد لله لقد ذهبوا، هيا قم لندخل إلى الغرفة الأخرى فقد يبدأ التفنيس بين لحظة وأخرى.

لقد كانت دهشة سهيل عظيمة أنسته شيئا من حدّة الموقف الذي مرّ به، أنها أمراه هذه التي أنقذته وسحبته إلى داخل بيتها وأعطته بندقية، يا لها من شجاعة. رُفعت الستارة المفضية إلى صحن الدار فأمتأ المدخل بضياء أفقده بصره للحظات.

-هيا اتبعني واحذر من إن تظهر صوتا، ففي علمهم إن البيت لا يسكنه أحد.

كانت نجية في العقد الثالث من عمرها، تنتشج بالسواد من رأسها إلى قدميها ووجها الأسمر التعب يفيض حزنا لا تبدده الدموع ولا العويل كما اعتادت النساء، صعدت قدامه إلى غرفة في الطابق العلوي، فتحت بابا يُشبه خزانة الملابس وأشارت إليه أن:

أدخل، هذا مكان لا يعرفه أحد.

سهيل :هنا في خزانة الملابس؟

نجية :تعال وانظر أولا، وإن كانت خزانة ملابس؟ أليست أفضل من رصاصات تُلهب صدرك؟

مد سهيل رأسه داخل الخزانة فشاهد من بين الملابس المعلقة غرفة خشبية صغيرة تضيئها خطوط الشعاع المنبعثة من خلال الزخارف، انحنى قليلا وخطا إلى الداخل لم يستطع إن يقف مستقيما بداخلها فبقي منحنيا متفحصا، وجد وسادة ومفرشا متواضعا يعلوه الغبار والفتحات التي يدخل منها الضوء تمكنه إن يرى الزقاق المحاذي للبيت، ومن الجانب الآخر تشرف على أرجاء صحن الدار، إنها أشبه ما تكون بمخبأ للمراقبة.

نجية: ها؟ أعجبتك؟ انزل أولاً لتغسل وجهك ريثماً آتيك بشيء تأكله .
نزل سهيل دون كلام فقد وجد أن هذه المرأة على دراية بما تفعله .

عاد إلى برجه المخفي بين الزخارف وانحناءات الأقواس التي تلف المكان، فجلس مسنداً ظهره إلى الوسادة الملقاة في زاوية المخبأ فتطاير غبار لامع كأنه أنابيب يتدفق من خلال الفتحات الخشبية في الشباك الصغير، أحس برغبة شديدة للنوم العميق لعله يستعيد شيئاً من نشاطه، ويلقي عن نفسه بعضاً من احمالها .

جاءته نجية بقدرح من الشاي وصحن اللبن الخاثر وكسرات خبز .

نجية: تفضل، لا بد إنك جائع، وهذه البندقية ضعها جانبا فلربما تحتاج إليها .

سهيل: وأنت؟ (وهو ما زال ممسكا بالبندقية والطعام).

نجية: هه، لا تُشغل بالك، مرتّ عليّ ثلاث ليالٍ على هذه الحال .
(ثم أغلقت الباب ونزلت).

لم يكن سهيل ليستطيع أن يترك لنفسه حرية النوم أو الراحة، فقد كانت أحداث يومه تتقافز إلى ذاكرته فينهض مرعوباً يتفقد الزقاق وصحن الدار، وأضواء النهار التي بدأت تسحب خيوطها المنسدلة عبر الأنجم الخشبية في الشباك، لذا لم يتفاجأ حينما طرقت نجية الباب:

نجية: هيا لقد حل المساء.

سهيل: (وهو يفتح باب الخزانة على ضوء الفتيل الذي كانت تحمله)
نعم إنه الليل، سأخرج حالياً، من الممكن أن يتسلل المرء عبر ظلام
الأرقة.

نجية: في هذا الوقت تود الذهاب؟

سهيل: ماذا انن؟

نجية: الطرقات الآن أكثر خطورة من النهار، وظلام الأرقعة ربما
يخفي بين طياته ما تخشاه وتحذر منه.

سهيل: ولكنك في البيت وحيدة، ووجودي قد يجلب لك المتعب.

نجية: (وضعت الفتيل الخافت على الأرض وجلست مستندة إلى
الجدار) لا أظن أن أحدا يعرف مكانك، ولا تشغل بالك من ناحيتي،
وعلى كل حال بإمكانك إن تغادر إذا رأيت أن ذلك يخدمك.

سهيل: (سار باتجاه باب الغرفة، نظر نحو السماء، كانت النجوم قد
بدأت تجتمع متحاورة ولصدي حديثها لمعان يزداد حدّة، ثم عاد نحو
نجية) الحقيقة أنا ناظر اليك إن لم يكن في بقائي حرج عليك، انتظر
حلول السحر وإلا.

نجية: (مقاطعة) حسنٌ هذا أفضل انتظر. (ثم قامت تتلمس طريقها إلى الطابق الأرضي).

جلس سهيل على الأرض يتأمل الضوء البرتقالي الخافت المنبعث من الفتيل الذي أوقد أفكاره فراح يحدق فيه، ولم يعلم بوجود نجية أمامه إلا بعد إن اخبرته أنها سمعت أصواتا تأتي من الزقاق فانفض من مكانه واقفا وأخرج بندقيته من الخزانة قائلا:

ابقي أنت هنا (متجها نحو الباب) أطفئي الفتيل.

نجية: (بعد إن أطفأت الفتيل) سأتي معك فأنت لم تتعرف على المكان بعد.

سهيل :لا، هذا شأنى أبقى أنت هنا، أرجوك (ثم نزل يطوي عتبات السلم بخفة وهو يصغي لكل صوت حتى أنفاسه وضربات قلبه، أقترب من الباب حينما سمع دقات متلاحقة، ويده قابضة على بندقيته بقوة).

-صوت من خارج الدار: أنكرس الباب؟ لا أحد يفتح.

-لا يوجد أحد في هذا البيت فمنذ أيام ونحن نجوب هذه الأزقة في الليل والنهار.

-لعلمهم في الداخل مختبئون؟

-لم يخرج أحد منه أو يدخل ولم نسمع صوتاً أو نرى بصيصاً، لا نريد إن نبدد وقتنا، هيا.

-لنأتي بقوة ندخله من أسطح البيوت المجاورة.

-هيا نفتش الزقاق المجاور.

انطلق سهيل إلى نجية بعد أن سمع وقع أقدامهم على الأرض تبتعد، فوجدها تشرف على صحن الدار وفي يدها مسدس صوبته نحو الباب.

سهيل: لقد ذهبوا، وقد يقتحمون البيت عبر السطوح المجاورة.

نجية: كل ليلة يطرقون الباب على هذا النحو.

سهيل: ما العمل إذن؟

نجية: لقد أغلقت المنافذ جيداً، ولو اضطررنا سننزل إلى السرداب (ثم دخلت الغرفة وأعدت إشعال الفتيل).

سهيل: أخشى أن يتسرب الضوء إلى الخارج عبر النوافذ.

نجية: لا تخش شيئاً بيتي محكم، أجلس هنا وهدئ من روعك سأتي بشيء نأكله.

جلس سهيل وقد وضع بندقيته في حجره مرهفا سمعه وهو يغالب أفكاره لئلا تشغله عما حوله، سمع خطوات نجية المتوجسة الحذرة وهي تصعد السلم لتضع بين يديه شيئا من الطعام، جلست إلى زاوية من البساط تحديق في ضوء الفتيل وهي تلوك الخبز المرطب باللبن الخائر وترشف الشاي من الفجان الذي احاطته بانمالها وعيناها مشدودة إلى الضوء وكأن بصرها قد شد إلى فتيل المصباح، أما سهيل فقد كان يرشق المكان حوله بنظرات فاحصة حذرة، نجية الفتيل، باب الغرفة ويرفع هامته لينظر إلى صحن الدار.

سهيل :كيف صبرت على البقاء وحدك في هذا المكان الموحش؟

نجية :الوحشة في الخارج، هنا أمان.

سهيل :ربما يراودني هذا الإحساس كوني غريب.

نجية) : (هزت رأسها مجيبة) نعم ، الليل كفيل أن يبدد خوفك ، دع عنك هذا وأكمل طعامك.

سهيل: (وهو يرشف الشاي) هل أنت وحيدة؟

نجية :وكيف تراني؟

سهيل :أقصد في غير هذا الوقت؟

نجية :تقريبا وحيدة، لي أم مسافرة، وقد منعتها الأحداث من العودة.

سهيل :وهل أنت. (مترددا في السؤال وقد ركز نظره إلى أناملها)
عفوا، أقصد .هل؟

نجية: (مبادرة) تقصد متزوجة؟

سهيل :عفوا للسؤال، لا أود التدخل، ولكن.

نجية: (مقاطعة) لا بأس، كنتُ، ولكنه لم يدم طويلاً.

سهيل :أنا اسف.

نجية :لم نكمل شهرا واحدا (بان في عينيها شرود وسكنت قسماتها
كأنها تتحدث بلا وعي) لم يصبروا عليه حتى أنني لم أراه منذ أن
فارقني، فقط أخبروني إنه مات. (انسابت دمعة لامعة بوهج نار
الفتيل على خدها لم تستطع إن تخفيها).

سهيل :آه (ضجرا لائما نفسه) ما هذا الذي فعلته؟ أفي هذا الوقت
أثير أحزانك؟ إنا آسف أرجوك فلنغير الحديث.

نجية :أيجدي نفعاً؟ صمتي كلمات مسموعة تثقلها أخبية الدار
شجوننا، يجمعها الليل وفود حزن تتسامر على مائدة القمر المضيّاف،
أو تدعوها تلك النجمة لتعقد جلسة مواساة، يا هذا الليل غطيني
واشبعني حزنا واسقيني وتقرّس فيّ طويلا حتى تلقيني جسدا لا
يعرف إلا طعم الحزن (ثم اردفت قائلة) أتصمت الكلمات؟ أم يلقي
الليل وشاح الحزن؟

سهيل :ولكن، حزنك تحول إلى شيء مثمر، وهذا غير معتاد، أقصد هذا شيء حسن، لم تبقيّ عند حدود الدمع، بل صار نشيجك مشكاة تضيء دروب الأحرار، وهذي منك شجاعة، مَنْ تقدر أن تفعل ذلك؟ قليلٌ وحياتك قليل، أنت الآن طوفان يبحث عن ثغرة.

نجية: في الليل أبحث عن نجم أفلت من قيد الافلاك أو جرمٍ لم يكمل دورته بعد حول الشمس، أمسكه، أنطلق على راحته أخترق زماني الموجع ألج الأعماق الشفافة حيث لا قبل ولا بعد أرضي، لا شرقاً أو غرباً، معراج نحو اللاقيد أو شرط، هنالك في تلك الأكوان تتهافت أحزاني وتحترق وأغسل جراحي بماء تشتاق إليه الأموه كي تتطهر (انتبهت فزعة من تداعياتها على طقطقة بندقية سهيل وهو يضعها إلى جنبه على الأرض، وعندما شعر إنه قطع عليها حديثاً كانت تلفظه من أعماقها، ابتسم لها معترداً، ثم استأنفت) قانلة:

ياه، ما أسرع مسرأيّ وإيابي، أصل إلى اقصى مكان في نفسي، أبتعدُ، أفقد أُنقال الجسد الإنساني وأتحدُ نجماً أو جرماً أتخذ مداراً اهليجياً، لكنني أهوي منه إلى أرضي، إلى بيتي، إلى حزني على إثر طقطقة أو همسة، صعب جداً إن تبقى الروح طليقة والحالة هذه.

سهيل :في هذي الأرض أفلاك كونية، تقيم مدارات تمسح دمع الأطفال وبؤس الفقراء، تنتثر عقب الحرية، هي أرضية، لكنها في الواقع كونية تلك الأفلاك تكمل دورتها المعتادة، تبحث عن أقصر

معراج يوصلها للملا قبل أو بعد، وعندما تصل، لا تقدر كل الأصوات
والهمسات بل كل الأحداث أن تُنزل منها قيد شعرة.

نجية: أفلاك الأرض مفقودة.

سهيل: بل موجودة، وأنت واحدة منها.

نجية: أجدها، لكنها مفقودة ما تلبث إن ترحل.

سهيل: هي أفلاك، تكمل دورتها الأرضية وتعود سيرتها الأولى، لا
تنقطع عنا بل تسبقنا، إن شئنا نلحق بها أو نلبث قليلاً.

نجية: لا أقدر أن أتجمل بالصبر.

سهيل: لكنك صبرت.

نجية: صعب جداً، أخشى ألا أصمد.

سهيل: طويتي الأيام مداراً، وسلكتي دروب العشاق، لا وحشة إن
كان الدرب طويلاً أو مقفراً.

نجية: لكن الوحشة في فقد الاحباب.

سهيل: لا منجى من ذلك، منهم مَنْ يصبر ومنهم من يرحل سعيداً.

نجية: وأعاف وحيدة؟

سهيل: أنت منهم، فلك دوّار، نجم ينشد آخر نقطة خلفها بعده، صبرك مدار، وزمانك أشواط في دائرة السعي الوردية، حزنك والوحشة سربال الاجرام الكونية.

نجية: أنا منهم؟

سهيل: أنت منهم.

نجية: نجم؟

سهيل: ومدارك يُرسل اضواءً.

نجية: لم أعرف حالي.

سهيل: هذا صحيح، فذاك سبيل العشاق، تُحرقهم نار الوجد ولا جفن يطرف منهم.

نجية: عُشاق؟

سهيل: نعم، عشق الشمس لرفعته، والقمر لدورته، عشق الافلاك لمدار حلزونيّ يبدأ من أصغر دورة.

نجية: أآآآآآه، أين كنتُ قبل هذا؟ لم لم أعرف نفسي؟ (وهي تشخص ببصرها نحو السماء) طلع الفجر.

سهيل :نعم (دار طرفه في الأفق) إنه الفجر الصادق، بداية المدار
أقصد الرحيل.

نجية :ترحل؟

سهيل :لا بد من ذلك، (نهض من مكانه متوجها نحو الباب)

.نجية :وتعود؟

سهيل :أرجو ذلك (وهو ينزل عتبات السلم)

.نجية :انتظرك؟

سهيل :انتظريني (أوقفها على السلم حتى لا تتبعه إلى باب الدار).

.نجية :منذ الآن أبدأ الانتظار.

سهيل :لن يطول.

.نجية :متى؟

سهيل :عندما تهمس النجيمات بأضوائها (غيبه ظلام الحجرة
المؤدية إلى الباب، صعدت نجية إلى الغرفة تتسمع خطواته،
استدارت نحو الشباك المطل على الزقاق، أرهفت سمعها، لكنها لم
تسمع شيئا، أمالت برأسها على نافذة الشباك وراحت ترقب
الطريق).

-مَنْ هناك؟ (صوت من الظلام)

-قف مكانك.

أغمضت عينيها وهي تنصت إلى وقع الأقدام الراكضة وأزيز
الرصاصة يخرق سكون الغبش البارد.

١٩٩٨/٢/٩

المحتويات	
٦	مائدة الرصيف
٩	الخطوة
١٤	الفقير فوق البعير
١٧	أحلام اوربية
٢٤	شيء يكبر
٢٩	حريق العربات
٤٤	حوار الاضداد
٦٢	أصوات لا تنسى
٦٦	ترانيم على وتر الوجد

على الرغم من ديناميكية الانسان في سعيه الى الكمال إلا أنه يبقى حبيس حاجاته، ما إن يحقق أولها حتى يطمح الى ما بعدها تكاملا الى حاجات السمو والرفعة. ولكنه يبقى حبيس ما لا يتمكن من تحقيقه، فالحاجات تراتبية تراكمية. لذا نجده يحلم ويتذمر ويتملق ويهرب ويناضل وينافق وربما يفقد حياته أملا بعالم أرحب.